هكذا يحلم أبناؤنا

بقلم

أحمد الجوهري عبد الجواد

إهـــداء

إلىٰ حفصة وريحانة وخديجة وأيمن، أبنائي الأعزاء..

وإلىٰ كل فتىٰ وفتاة، مقبلين علىٰ مستقبلهما في الحياة، ويحلمان بغد سعيد وكريم..

يسرُّني أن أهديكما هذا الكتاب لتستشرفا من خلاله معالم ذلك المستقبل، وتختارا من بين طرقه الجميلة طريقًا تسيران فيه، ووظيفة تخدمان من خلالها ديننا الإسلامي المجيد، وأمتنا الإسلاميَّة العظيمة.

المـؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

- حمزة!

- نعم يا أستاذي.

- كم عمرك؟ يا حمزة!

- عمري أربع عشرة سنة.

- ما شاء الله، كبرت يا حمزة، بارك الله عمرك، هل تعلم أن هذا العمر هو الذي يبدأ المرء فيه ببناء أحلامه، وتشييد مستقبله، وتمنِّي أمانيه لغده؟

- نعم، أعلم، وقد داعبتُ أحلامي وداعبتني، علىٰ ضوء القصص الجميلة التي قرأتها في إجازة العام الماضي من كتابك الجميل: «**قصص أشبال الإيمان**»، وكذلك من القصص التي تحرص أُمِّي علىٰ حكايتها لنا في بعض الليالي عن الناجحين، والمبدعين، والقادة، والرجال العظام الذين تزخر بهم أمَّتنا.

- الله.. تسعدني عباراتك تلك يا حمزة، أكرم الله بالجنة أمك وأباك وجزاهما خيرًا علىٰ ما أودعاك من علم وأدب،

وعلىٰ أيِّ شاطئ رست سفينتك يا حمزة؟ ما الذي اخترته من بين تلك الأحلام، وما تنوي أن تكون عليه في المستقبل؟ أتحفني يا حمزة!

- مرت بخيالي كلُّ البطولات يا أستاذي، وكنت في كلِّ مرةٍ أقيس نفسي عليها وأضعني مكان صاحبها، وأتعرَّفُ علىٰ ظروفها وأقيس مؤهلاتي عليها، لكني لم أتعجَّل الاختيار، ما زلت إلىٰ هذه اللحظات أراجع حساباتي، فأنت تعلم أنَّ هذه المسألة اختيار صعب، وتتوقف عليه حياة الإنسان ومستقبله وسعادته وغير ذلك، أليس كذلك أستاذي؟

- بلي، يا حمزة، وهذا مما يُعجبني منك ويسعدني كذلك، ولهذا أحضرت لك اليوم معي هذا الكتاب، لعلك تجد فيه غايتك وتعثر داخله علىٰ أحلامك وآمالك، تفضَّل.

- «**هكذا يحلم أبناؤنا.. كتاب يرسم أحلام فتيان وفتيات الإسلام**»! الله.. لكأنَّك قرأت ما في نفسي يا أستاذ أحمد، كانت نفسي تحدِّثني بشيء كهذا أقضي معه الإجازة هذا العام، ويعلم الله كم تمنيت أن أجده مجموعًا في كتاب وإلا كان سيضنيني البحثُ عنه في كتب كثيرة والتدوينُ لما أختاره منها في دفاتري،

ومن يدري هل كنت أقع عليه بهذه الصورة أم لا؟ جزاك الله عنا يا أستاذي خير ما جزىٰ معلِّمًا عن طلابه، وداعية عن محبِّيه، وجعله الله في ميزان حسناتكم أستاذي العزيز.

- بارك الله فيك وفي أمثالك يا حمزة، أنتم أملنا في مستقبلنا، ومن واجبنا أن نرعاه اليوم حتىٰ نجده علىٰ ما نحبُّ غدًا، وإلا سألنا الله عنكم لم فرطنا في إعدادكم؟ جعلكم الله خير عدة لمستقبل هذه الأمَّة، دواءً لأدوائها، وشفاءً لعللها، وتحقيقًا لأمانيها وآمالها، ألمحك تنظر في فهرس الكتاب!

- آمين آمين.. نعم فتلك الأسماء المتناثرة علىٰ الغلاف قد جذبت انتباهي، وأريد أن أستزيد خبرًا عن الشخصيَّات التي ضمَّها الكتاب، وقد سرَّني أن أجد فيه ما يناسب الفتيان أمثالي، وما يناسب الفتيات أمثال أختي ريحانة، لم تنسها هي وأخواتها يا أستاذي كما تعوَّد كثير من المؤلفين نسيانهنَّ وكأنَّهنَّ لسن نصف المجتمع!

- صحيح يا حمزة، وهذا خطأ وقعت أمتنا فيه فترة، لكننا بفضل الله نصحِّحه الآن، ونفعل الصواب إن شاء الله، وهذه نسخة ريحانة قد أحضرتها لها معي، فأعطها إياها لتقرأها،

وأنتظر إن شاء الله رأيكما حول موضوعات الكتاب، توكل علىٰ الله، لا أؤخرك أكثر من هذا.

- إن شاء الله؛ أستودعكم الله تعالىٰ.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أستاذي.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أيها الحبيب.

حمل حمزة الكتاب يقلبه بين يديه فرحًا مسرورًا وخرج من المسجد، كان في طريقه إلىٰ البيت يسترق البصر إلىٰ العناوين الرئيسة فتبهره، ويتمنَّىٰ الوصول إلىٰ البيت بسرعة حتىٰ يلتهم موضوعاته واحدًا واحدًا، فقد بدا له أنه كتاب جذَّابٌ ممتع.

عند البيت سمع من ينادي:

- حمزة!

- أهلًا ريحانة، مرحبًا بك، انظري ماذا جلبت معي، كتاب جميل نقضي معه الوقت بمتعة، انظري!

- الله.. «**هكذا يحلم أبناؤنا.. كتاب يرسم أحلام فتيان وفتيات الإسلام**»! ماذا بداخله يا حمزة؟

– يظهر لي من اسمه أشواق وآمال طالما داعبت خيالي ولاقت آمالي، ليتني أجده كما أؤمل منه الآن.

– ستجدينه يا ريحانة، وأكثر، فقد قلَّبت أوراقه وطالعت عناوينه، فيا لجمال ما رأيت!

– هل تعلمين أنه ما ترك أملًا ولا حُلمًا يراود فتًى ذكيًّا ولا فتاةً نابهةً إلا وذكره، وحدَّثهما عنه؟

– إنه يشيِّد مع المرء مستقبلَه، ويقدِّم له النصح بشأنه، ويجرِّئه علىٰ الحلم ويبين له أسس التفكير الصحيح لتحقيقه.

– إنَّه كتاب المستقبل بحقٍّ، بإمكاني وبإمكانك أن نستلهمه بقوَّة في وضع خطة مستقبل أيامنا؛ لتكون محددة واضحة، ولنصل إلىٰ تحقيقها بسلامة وأمان.

– وهذه نسختي؟

– نعم أختي الحبيبة، حرص الأستاذ أحمد علىٰ منحنا نسختين، لكلِّ واحدٍ منا نسخة مستقلَّة، ذلك أنه يؤمن بأنَّ من حقِّ الفتىٰ أن يحلم ومن حق الفتاة كذلك، فإن كان هو نصف المجتمع فإنها نصفه الآخر، بل ربما كان نصفها هي أعظم من

نصفه وأكبر وأهم لأنها تُربي النصف الآخر، ولهذا جعل لها في الكتاب حديثًا خاصًّا رغم اشتراكها مع الفتيان في بقية الكتاب.

- شكر الله له، وبارك عمره ووقته، وتقبَّل عمله.

- هيا يا حمزة!

لقد اشتقت للانفراد بهذا الكتاب، ومناجاته.

- هيَّا، هيَّا!

- هيَّا باسم الله.

دخل حمزة وريحانة البيتَ، وما إن دلفا إلىٰ الداخل وحييا والديهما ومَن في البيت، حتىٰ أخذ كلٌّ منهما مقعدًا في صالته الهادئة، وراحا يقلِّبان النظر في الكتاب وكانت البداية مع:

باحث عن الحقيقة

معرفة الأشياء علىٰ حقيقتها بعيدًا عن الأكاذيب، عاريةً عن الزيف، خاليةً من التضليل؛ شيءٌ مهمٌّ جدًّا في حياة الإنسان، وهو أمرٌ عظيمٌ بذل الإنسان من أجله جهدًا كبيرًا ودفع كثيرًا في سبيل الوصول إليه ثمنًا غاليًا.

فقد اجتهد الإنسان كثيرًا ليعرف حقيقة كلِّ شيء حوله؛ حقيقة الحياة؛ لماذا وجدت، وكيف تسير، ومتىٰ تنتهي؟

وحقيقة الإنسان؛ لماذا خُلق، وما هو هدفه في الحياة، وماذا يريد؟ حقيقة الموت، وما بعده، ليتعرَّف علىٰ الله الذي خلق هذا الكون وأبدعه؛ من هو؟ وكيف يتعرف عليه؟ وكيف يوفِّيه حقَّه؟ وكيف يُرضيه؟

وهكذا، كانت هذه الأسئلة شغل الإنسان الشاغل، ولم لا؟ والوصول إلىٰ الحقيقة هدف عظيم، بل هو أغلىٰ أهداف الإنسان في الحياة.

وقصص الباحثين عن الحقيقة في التاريخ كثيرة..

ومن هؤلاء رجل عظيم حفظ لنا التاريخ اسمه ونسبه وبلده، وقصته، وهي قصة رائعة، فيها فوائد عظيمة، ولعل هذا

الرجل أعظم الباحثين عن الحقيقة من بني البشر علىٰ الإطلاق، كان اسمه (**مَابَهُ بْنُ بُودَخْشَانَ**)، وهو فتىً ذكيٌّ ماهرٌ شجاع من أبناء الملوك، عاش (**مابَه**) في إحدىٰ بلاد الفرس، وكان أبوه هو الأمير الذي يحكم هذه البلدة، كان (**مابَه**) أحبَّ خلق الله إلىٰ أبيه وأمِّه، وكان أبوه يحرص عليه حرصًا شديدًا ويريد أن يعلمه ويُؤدبه ويُعوِّده علىٰ طريقة الملوك فمنعه من الاختلاط بعامة الناس واجتهد في تعليمه ببيت الإمارة الكبير.

وجميع الآباء كذلك؛ يحبُّون أولادهم ويحبون لهم الخير ويتمنون تربيتهم علىٰ جميل الآداب وحسن الأخلاق وإن منعوهم عن شيء يظنه الأولاد مفيدًا فإنما يمنعونهم منه لمصلحتهم ومنفعتهم، وليس معنىٰ إفادة الشيء أن نستعمله في أي وقت وبأيَّة كميَّة، بل لكل الأمور أولويات ومقادير.

نشأ (**مابَه**) فوجد أهل بلاده الفرس يعبدون النار، وكانت ديانتهم تسمىٰ (**المجُوسِيَّة**)، فاجتهد في هذه الديانة حتىٰ وصل إلىٰ أعلىٰ الدرجات فيها، وصار هو الذي يرعىٰ النار التي يعبدونها، وكانت مهمته أن يوقدها ولا يتركها تنطفئ لحظة من الزمان.

كانت عقول الناس في عماية وضلالة قبل أن يبعث الله نبيه محمدًا ﷺ، وهذا دليل علىٰ حاجة الناس إلىٰ رسل الله وأنبيائه والكتب التي جاءوا بها من عند الله لأن العقل لا يمكنه الهداية إلا باتباع النبي ﷺ والكتاب الذي جاء به من عند الله، وبغير ذلك يضلُّ الإنسان ويشقىٰ ويعمىٰ عن الحق ويتيه في الغواية والضلال.

كبر **(مابَه)** وصار شابًّا وكان أبوه بعد ما غذاه بالدِّين وعرَّفه علىٰ عادات بلاده وآداب الملك والإمارة قد سمح له أن يختلط بالنَّاس ويتعرَّف إليهم، وكان يساعد والده في إنجاز بعض المهام، فمشاغل والده كانت كبيرة وكثيرة وكان ذلك يسعد **(مابَه)** كثيرًا؛ ففوق أنه يثبت قدراته علىٰ ممارسة الأعمال يقدم خدمة لوالده بمعاونته ومساعدته عرفانًا لجميله في تربيته وتعليمه وقيامًا لحق أبيه وبرِّه.

وذات يوم شُغل الأب في بناء قصر من القصور، فقال لابنه: يا بُنَيَّ، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن الذهاب إلىٰ البستان، فاذهب فَاطَّلِعْ عليه، وتفقدْه، وانظر هل يحتاج العُمَّال هناك إلىٰ شيء.

فتجهز (**مابَه**) وخرج في اتجاه البستان، وفي طريقه مرَّ بكنيسة من كنائس النصارىٰ فسمع أصواتهم فيها وهم يصلُّون علىٰ طريقتهم، وكان لا يدري شيئًا عنهم، فلما مرَّ بهم وسمع أصواتهم دخل عليهم ينظر ما يصنعون، فلما رآهم أعجبته صلاتهم، ورغب في أمرهم، وقال لنفسه: هذا والله خير من الذي نحن عليه من عبادة النار، فلم يتركهم وظلَّ عندهم حتىٰ آخر اليوم، يسألهم ويتفهم أمورهم ويتعرف إلىٰ حقيقة دينهم، وكان مما سألهم عنه: أن قال لهم: أين أصْلُ هذا الدين؟ من أين أتاكم وكيف عرفتموه؟ ومن هو العظيم الذي جاء به وعلَّمه للناس، فقالوا: أصل هذا الدين من الشام، وعرَّفوه جواب ما سألهم عنه.

كانوا أهل كتاب منزل من السماء وهو **الإنجيل** الذي أنزله الله علىٰ نبيِّه عيسىٰ عليه السلام، ولهذا دخل في قلبه وجذب فؤاده وأيقن أنه خير من دينه المخترع الذي لا تربطه أيَّة صلة بالله تعالىٰ وأنبيائه فلن يكون فيه خير أبدًا.

كان (**مابَه**) في غمرة هذه المفاجآت قد نسي أمر البستان فلم يذهب إليه، وتأخر في الوقت عن العودة إلىٰ البيت، وقلق عليه والده حتىٰ شغله عن عمله كله، فبعث من يبحثون عنه

ولم يجده، فلما رجع هو بعد ذلك إلىٰ أبيه استقبله فَرِحًا، وقال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: يا أبت، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتىٰ غربت الشمس.

قال: أي بني، ليس في ذلك الدِّين خير، دينك ودين آبائك خير منه.

فقال له: كلا، والله إنه لخير من ديننا.

وهنا خاف أبوه أن يتركه (**مابَه**) ويترك دينه فحبسه في البيت وجعل في رجليه قيدًا.

فوجئ (**مابَه**) بردة فعل أبيه، وفكر في حيلة يتخلَّصُ بها من هذا الأسر، ففكر، واستخدم بعض الخدم في بيتهم فبعثه إلىٰ النصارىٰ الذين تعرف عليهم في الكنيسة فقال لهم: إذا قدم عليكم تجَّار نصارىٰ من الشام فأخبروني بهم، وفعلًا لما قدم عليهم جماعة من تجار الشام من النصارىٰ أخبروه بقدومهم، فتجهَّز وقال لهم: إذا قضىٰ هؤلاء التجَّار حوائجهم وأرادوا العودة إلىٰ بلادهم فأعلموني بهم.

فلما أخبروه أن هؤلاء التجار الشاميُّون يهمُّون بالعودة إلىٰ بلاد الشام احتال حتىٰ ألقىٰ الحديد من رجليه، وهرب من البيت، حتىٰ أتاهم وخرج معهم إلىٰ أن قدموا الشام، فلما قدمها سأل أهلها: من أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا: الأُسْقُفُ في الكنيسة، وهذا مما يدل علىٰ همَّته العالية فإنه لم يبق في بلده وإنما رحل إلىٰ البلد الأصليِّ الذي نزل فيه هذا الدين، وحين وصله لم يطلب أيَّ أحد بل طلب أعلم هؤلاء بالدين وأفضلهم معرفة بما فيه.

فلما دَلُّوه جاء إليه وتحدَّث معه، فقال له بعد أن عرَّفه بنفسه: إني قد رغبت في هذا الدِّين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلَّم منك وأصلي معك.

قال الأسقف: فادخل.

فدخل معه، وكان هذا الأسقف رجل سوء؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها شيئًا اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتىٰ جمع سبع قِلال من ذهب.

عرف (مابَه) حقيقته وأبغضه بغضًا شديدًا لما رآه يصنع بالفقراء والمساكين وأهل دينه، لكنه ظلَّ معه فترة حتىٰ يتدبَّر

أمره، وفي يوم من الأيام استيقظ (مابَه) من النوم ودخل ليوقظ الأسقف فوجده قد مات، ولما علم النصارىٰ بموته حزنوا حزنًا شديدًا واجتمعوا إليه ليدفنوه، لكن (مابَه) استغلَّ اجتماعهم هذا وكشف لهم عن حقيقة هذا الأسقف الفاسد السارق وقال لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعطِ المساكين منها شيئًا.

ولما قالوا له: وما علمك بذلك؟

قال: أنا أدلكم علىٰ كنزه.

قالوا: فدلنا عليه.

قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة، وهذه آخرة الفاسدين المرتشين، ولو ادَّعوا وبان ظاهرُهم أنهم متديِّنون فإنَّ الله تعالىٰ يعلم بواطنهم فيعاقبهم في الدنيا أو يؤخِّرهم إلىٰ يوم القيامة فيفضحهم علىٰ رءوس الأشهاد!

ثم جاءوا بعالم آخر فجعلوه مكانه، فكان رجلًا عالمًا عابدًا، شاهد (مابَه) منه مواقف كثيرة تدل علىٰ صدقه وأمانته وزهده وانصرافه عن الدنيا وإقباله علىٰ الآخرة، وكان يتعب ليل نهار في وظيفته لخدمة أبناء دينه، فأحبه (مابَه) حبًّا لم يحبه أحدًا من قبله، وأقام معه زمانًا طويلًا يخدمه ويعاونه في أموره ويتعلَّم منه سعيدًا بذلك مسرورًا.

كان هذا الأسقف عجوزًا مريضًا، وذات يوم ثقل عليه المرض وحضرته الوفاة، فلما رأىٰ (مابَه) ذلك حزن لأجله حزنًا شديدًا، وتحدَّث إليه قائلًا: يا سيِّدي، إني كنت معك فأحببتك حبًّا لم أحبه أحدًا من قبلك، وقد حضرتك الوفاة، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا اليوم علىٰ ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدَّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلًا بمدينة الموصل وهو فلان، وهو علىٰ ما كنت عليه، فَالْحَقْ به وكن معه وتعلم منه.

فلما مات الأسقف ودفن سافر (مابَه) إلىٰ صاحب الموصل الذي دله عليه، فلما وصل إليه قال له: يا فلان، إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك علىٰ أمره.

فقال له: تفضَّل أقم عندي.

فأقام (مابَه) عنده، فوجده خير رجل، كان علىٰ نفس أمر صاحبه، صادقًا أمينًا، لكنه لم يلبث أن حضرته الوفاة، بعد زمن قليل من وصول (مابَه) إليه، فقال له: يا سيدي، إن فلانًا أوصىٰ بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترىٰ، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلاً علىٰ مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنَصِيبِينَ وهو فلان، فَالْحَقْ به.

كان (مابَه) في كلِّ مرة يسأل عن أفضل من يصاحبه ويلتحق به ويسترشد به في الطريق إلىٰ الله حتىٰ يطمئنَّ ويعرف والأخيار يعرف بعضهم بعضًا، ومن جرَّبته فوجدته صادقًا فلن يدلَّك إلا علىٰ من هو مثله، وكان أمر النَّاس في هذا الزمان قد تغيَّر وقلَّ الأخيار وكثر الأشرار فكان لا بد من السؤال والاستدلال.

لما مات أسقف الموصل ودفن، حمل (مابَه) أمتعته مرَّة أخرىٰ وسافر إلىٰ صاحب نصيبين، فلما جاءه وأخبره بما جرىٰ وما أمره به صاحبه، قال له: أقم عندي، فأقام عنده،

فوجده علىٰ أمر صاحبيه السابقين الصادقين، فأقام مع خير رجل، لكنه ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِر قال له: يا فلان، إن فلانًا كان أوصىٰ بي إلىٰ فلان، ثم أوصىٰ بي فلان إليك، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا بقي علىٰ أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعَمّورِيَّةَ، فإنه علىٰ مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فَأْتِهِ؛ فإنه علىٰ مثل أمرنا.

يا لله، كم لقي هذا الشاب من تعب وكم وجد في طريقه من مشاق في سبيل الوصول إلىٰ الحقيقة والتعرُّف علىٰ الصواب، وصحبة الطيبين الصادقين من الناس، لكنها الحقيقة التي يهون في سبيلها كل غال ويصغر لأجل الحصول عليها كلُّ مجهود.

لما مات صاحب نصيبين ودُفن حزم (**مابَه**) أمتعته ولحق بصاحب عمُّورية، وأخبره خبره، فقال: أقم عندي، فأقام عند رجل علىٰ هدي أصحابه وأمرهم، وكان (**مابَه**) في هذه الأثناء يعمل بعض الأحيان ليكسب قوته ويطعم من حلال، حتىٰ اجتمع له مال اشترىٰ به بقرات وبعض الأغنام، وبقي عند صاحب عمُّورية حتىٰ حضرته الوفاة، لقد كانوا أربعة أصدقاء

علىٰ طريق الخير وكانت أعمارهم متقاربة فكانت وفياتهم بعد مدة يسيرة من وصول (**مابَه**) إليهم وإقامته عندهم، لكنه علىٰ كل حال قضىٰ فترة جميلة مع هؤلاء الأصدقاء الأربعة الصالحين الصادقين، وكان صاحب عمورية هذا آخرهم، فلما نزل به أمر الله، واحتضر قال له (**مابَه**): يا سيِّدي، إني كنت مع فلان فأوصىٰ بي إلىٰ فلان، وأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلان، وأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلان، وأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلان، فإلىٰ من تُوصي بي؟ وما تأمرني؟

قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا من الناس أصبح علىٰ ما كنَّا عليه فآمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلىٰ أرض تقع بين مكانين يمتلئان بالحجارة، بينهما نخل، ولهذا النبي علامات لا تخفىٰ؛ يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فَافْعَلْ، ثم مات.

مكث (**مابَه**) بعمورية ما شاء الله أن يمكث، ثم مر به نفر من العرب تجار، فقال لهم: تحملوني إلىٰ أرض العرب

وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم.

يا الله، إنه ما زال علىٰ نشاطه كما هو، مُصرًّا علىٰ المضيِّ إلىٰ غايته عازمًا علىٰ الوصول إلىٰ هدفه، راغبًا في التعرُّف علىٰ الحقيقة بأيِّ ثمن، لقد دفع أيضًا كلَّ ما يملكه لقاء ذلك، لم يهمَّه أن يحتفظ ببعضه، لقد كانت الحقيقة عنده أغلىٰ من كلِّ شيء.

أعطىٰ **(مابَه)** التجار العرب كل ما معه من بقرات وأغنام ليحملوه معهم إلىٰ أرض العرب، أرض النبي الذي بشَّرت به كتب الله وآخرها الإنجيل كما أخبره الأسقف الصادق الصالح.

حمله التجار، حتىٰ إذا قدموا به مكانًا يقال له: **(وادي القرىٰ)** ظلموه وغدروا به فباعوه لرجلٍ من يهود، لقد اعتبروه عبدًا فباعوه وقبضوا ثمنه، رغم أنه أعطاهم ثمن رحلته ولم يكن عالة عليهم في شيء، لكن هكذا بنو الإنسان منهم الشريف والوضيع، ومنهم العادل والظالم، ومنهم الوفيُّ والغادر.

وقد أطلق التجار علىٰ **(مابَه)** اسم **(سلمان)** حتىٰ لا يُكتشف أمرهم، وفي وادي القرىٰ أقام سلمان عند هذا

اليهوديِّ يخدمه كعبد، وقد حزن سلمان لفوات الوقت علىٰ وصوله مُبكرًا لتلك البلاد التي قصدها، لكن خفف من حزنه أنه رأىٰ المكان الذي كان فيه كثير النخل، فرجا أن يكون هو البلد الذي وصفه له صاحبه ويجد به النبي الخاتم من ولد إبراهيم عليه السلام الذي بشر به جميع الأنبياء، وإذ وجده وفيه بعض المواصفات فرح فرحًا عظيمًا، لكنه ما لبث أن عرف أنه ليس علىٰ كامل الصفة التي وصفها له صاحبه!

لا بأس بالعقبات في طريقٍ إذا كان يصل بك في النهاية إلىٰ الخير، ولا بد من تضحيات لتكون متعتك بالخير متعة مكتملة، وأن تصنعه أنت فيدوم لهو خير من أن يصنعه لك أحد دون تعب منك وجهد فيضيع بسهولة كما جاء بسهولة أو يمنَّ به عليك من صنعه لك يومًا.

وبينما (**سلمان**) عند ذلك اليهودي في وادي القرىٰ قدم عليه ابن عم له من يثرب من يهود بني قريظة فاشتراه منه، واحتمله إلىٰ المدينة المنورة، وعندما نزل سلمان مع اليهودي في المدينة ما هو إلا أن رآها حتىٰ عرفها بصفة صاحبه، إنها المدينة التي سيهاجر إليها النبي المبارك، خاتم رسل الله، وكلُّ

يوم جديد يأتي عليه كان سلمان يتعرَّف علىٰ معالمها أكثر فيتيقن أنها هي هدفه الذي سعىٰ إليه، لقد وفَّقه الله تعالىٰ للوصول إليها، بعد هذا الجهد الكبير والتعب العظيم، الآن نسي سلمان تعبه ومجهوده لأنه ظفر بغايته وقريبًا يحقِّق أمله، أقام سلمان بالمدينة مدة، وكان الله تعالىٰ قد بعث رسولَه محمدًا ﷺ بالإسلام، وأقام الرسول ﷺ في مكة ما أقام لا يسمع له سلمانُ بذكر، مع ما كان فيه من شغل الرِّقِّ، لكنه كان يتسمع بعض الأخبار من هنا وهناك فيرجف لها فؤاده ويطرب لها، ويفرح أشد الفرح، ثم أذن الله تعالىٰ لنبيه ﷺ بالهجرة إلىٰ المدينة، فاقترب تحقيق أمل **سلمان** أكثر.

وذات يوم كان (**سلمان**) مشغولًا بعمله، كان فوق نخلة يحصد رطبها، وكان سيده اليهودي جالسًا في ظلال بعض الأشجار، وبينما هو علىٰ هذه الحالة استأذن عليه ابن عم له وأخبره أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد اجتمعوا الآن في قباء يستقبلون الرسول ﷺ فقد جاءهم من مكة مهاجرًا.

جاءت البشرىٰ، وهلَّت لحظة الخير التي طالما انتظرها سلمان وسعىٰ إليها من أرض فارس وقاسىٰ في سبيلها كلَّ ما مرَّ به من عقبات وأهوال، وهكذا لكل ساعٍ وباذلٍ لحظة

يسعد فيها ويفرح بتحقيق أمله وتحصيل هدفه ونجاحه في سعيه وحينها ينسيه ذلك النجاح كل متاعب الطريق ومشاقِّه.

وصلت الكلمات إلىٰ أذن سلمان فلما سمعتها أخذته رجفة شديدة كأنَّ به حمىٰ ولم يتمالك نفسه وكاد يقع من فوق النخلة، لقد طار قلبه من الفرح لما سمع، ها هو أمله يتحقق، ويوشك أن يرىٰ رسول الله ﷺ رأي العين، فنزل عن النخلة بسرعة وقال للرجل المتكلِّم: ماذا تقول؟ فغضب سيده ولكمه لكمة شديدة، وقال له: ما لك ولهذا؟! ثم قال له في لهجة قاسية: أقبل علىٰ عملك!

تلقَّىٰ سلمان اللكمة صابرًا وردَّ علىٰ سيِّده في هدوء وحنكة قائلًا: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال؛ لكنه بيَّت في نفسه كلَّ شيء، وعزم علىٰ المضيِّ في البحث للوصول إلىٰ الحقيقة التي جاء لأجلها، وقرر زيارة النبي ﷺ في المكان الذي يقيم فيه، فسأل عنه وجهَّز نفسه لزيارته، وكان يتذكر العلامات الثلاثة التي يستدل بها علىٰ صدق النبي ﷺ كما ذكرها له الأسقف الأخير، وأخذ في اختبار العلامات الثلاث، بدأ بالصدقة، وقد كان عنده شيءٌ جمعه من طعامه، فلما جاء

المساء وانتهىٰ من عمله، أخذه وتوجَّه به إلىٰ المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ وأصحابه، دخل سلمان علىٰ النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، فقال موجهًا خطابه للنبي ﷺ: إنه قد بلغني أنك رجل صالح معك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم.

قال سلمان: فقربته إليه، فقال رسول الله لأصحابه: «**كلوا**». وأمسك يده هو فلم يأكل.

قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة.

لقد تأكد سلمان من صدق العلامة الأولىٰ وهي أن النبي ﷺ لا يأكل الصدقة، فانصرف عنه، وفي اليوم الثاني عزم علىٰ اختبار العلامة الثانية.

كانت العلامة الثانية تتطلب طعامًا أيضًا فأخذ سلمان طعام يومه وذهب به إلىٰ النبي ﷺ وأصحابه، كان النبي ﷺ قد انتقل إلىٰ داخل المدينة، فجاء إليه سلمان بالطعام، وقال: أيها الرجل الصالح، إني قد جئتك أمس بطعام فلم تأكل منه فقدَّرت أنَّك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها وقدَّم

ما معه من الطعام إلىٰ النبي ﷺ، وهنا أكل رسول الله ﷺ من هذا الطعام، الهدية، وأمر أصحابه فأكلوا معه.

وقف سلمان ينظر وهو مسرور سعيد يقول في نفسه: هاتان اثنتان.

لقد ترجَّح لسلمان عند هذا صدق النبي ﷺ في أنه رسول الله، لكنه لم يكتف بهذا حتىٰ يتيقن كامل اليقين، فقصد إلىٰ رؤية خاتم النبوَّة وهو علامة موجودة في ظهر النبي ﷺ، وأخذ يتحيَّن الفرصة المناسبة لذلك، حتىٰ جاءت هذه الفرصة يوم كان رسول الله ﷺ في البقيع في جنازة أحد أصحابه، وبعدما انتهىٰ النبي ﷺ من دفنه جلس في أصحابه، فجاء سلمان فسلم عليهم، ثم استدار ينظر إلىٰ ظهر النبي ﷺ هل يرىٰ الخاتم الذي وصفه له صاحبه؟ فلما وجده رسول الله ﷺ ينظر إلىٰ ظهره الشريف، عرف أنه يستثبت في شيء وصف له، فألقىٰ ﷺ رداءه عن ظهره، فنظر سلمان إلىٰ الخاتم فعرفه، فانكب عليه يُقَبِّله ويبكي.

لقد وجد سلمان العلامة الثالثة ولم يبق بعدها من شكٍّ ولو بمقدار ذرَّة أنَّ رسول الله ﷺ صادق في رسالته من عند الله،

فلما رآه النبي ﷺ علىٰ هذه الحال ناداه برفق وقال له: تَحَوَّلْ، فتحول سلمان من وراء النبي ﷺ وجلس أمامه، فقصَّ عليه قصَّته، فأعجبت رسول الله ﷺ وأعجبت أصحابَه.

لقد وصل سلمان إلىٰ الحقيقة التي عاش لأجلها يتنقَّل بين البلدان، ويجري وراء السنين والأعوام، ويبحث في الأمارات والعلامات، ولم يبق بين سلمان وبين أن يصحب النبي ﷺ في كل لحظة من لحظات حياته غير أمر الرق الذي شغله بعض الوقت، ثم أعانه النبي ﷺ علىٰ افتداء نفسه، وأعانه الصحابة رضي الله عنهم لأن صاحبه اشترط لعتقه أن يغرس له ثلاثمائة نخلة فساعده الصحابة علىٰ شرائها والحفر لها، ثم إنَّ النبي ﷺ هو من غرسها بيده.

يقول سلمان: فوالذي نفس سلمان بيده، ما مات منها نخلة واحدة؛ لأن رسول الله ﷺ هو من غرسها بيده.

وبعدما أوفىٰ سلمان سيِّده حقَّه أعتقه، فصار حرًّا[1]، ومن يومها لزم النبي ﷺ وفاز بصحبته، وشهد معه المشاهد كلها، وتوفَّي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، وكان ﷺ يقول:

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٤١) وقال المحققون: إسناده حسن.

«**سلمان منا آل البيت**»[١].

لقد عُرف **سلمان** رضي الله عنه باسم **سلمان الفارسي** وقد كان هو رضي الله عنه يفتخر بنسبه فقط إلىٰ الإسلام، علىٰ حدِّ قول الشاعر نَهارِ بنِ تَوسعَةَ اليَشْكُرِيِّ:

أبـــي الإســـلامُ لا أبَ لـــي سِـــواه

إذا افتخـــرُوا بقَـــيسٍ أو تمـــيمِ[٢]

لقد تميَّزت شخصية سلمان بعدة مميزات جميعها يوصِّل إلىٰ الحقيقة، هي:

العزيمة والإصرار، والبذل والتضحية، والمغامرة والاستكشاف، وحريٌّ بمن كان كذلك أن يصل إلىٰ هدفه، وقد نجح سلمان في بحثه ووصل إلىٰ هدفه، وترتب علىٰ ذلك من الآثار الطيبة الجميلة أن صار من عباد الله الصالحين، ومن أمة الإسلام، وأحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وفي هذا كله فرق كبير جدًّا عما كان عليه قبل ذلك لو قُدِّر له

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٨)، والطبراني (٦/ ٢٦١)، وقد صح موقوفًا علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر: الضعيفة (٣٧٠٤).

(٢) الكامل في اللغة والأدب (٣/ ١٣٣).

أن يبقىٰ في بلده وبين أهله وعلىٰ دينه القديم.

فلنتعلم هذه الصفات المميزة في سلمان، ولنأخذ أنفسنا بالتفكير العميق والبحث الدقيق لنصل إلىٰ الحقائق ولا تغرينا المناظر أو تخدعنا المظاهر، بل نبحث عن حقائق الأشياء في هذه الحياة، ونحاول الاهتداء إلىٰ غايات الأشياء ونهاياتها.

ومن أقوىٰ الآليات التي تساعدنا علىٰ الوصول إلىٰ ذلك: **العلم**، فبالعلم وصحة استخدامه نستطيع التوصل إلىٰ الحقائق.

وكبرىٰ الحقائق التي لا زيف فيها، وأعظم الصدق الذي لا كذب به أن الإنسان عبد مخلوق خلقه الله تبارك وتعالىٰ لعبادته، وسخَّر الكون كلَّه من أجله، فإن أطاع هذا العبد ربَّه رضي عنه وأسعده، وإن عصىٰ هذا العبد غضب عليه ربُّه وأشقاه..

وعلىٰ هذا قامت الدلائل التي لا يمكن إنكارها بحال.

مر الوقت سريعًا وحمزة مستغرق بروحه وعقله مع الصحابي الجليل سلمان رضي الله عنه، حتىٰ انبعث صوتٌ كله حنان ورحمه:

حمزة! حمزة!

انتبه حمزة إلىٰ نداء والدته عليه فأجابها سريعًا:

نعم يا أمي!

قد أذن العصر يا حبيبي، ألم تسمعه؟

نعم يا أمي، يظهر أنني غرقت لأذنيَّ في هذا الكتاب الجميل، ولي معه عَودة وعودة وعودة، لأذهب الآن إلىٰ الصلاة، ثمَّ أرىٰ كيف أشبع من موضوعاته تلك الرائعة.

كان حمزة يتكلم ويتحرَّك ووجهه غارق في الكتاب يقلب صفحاته، فلم يدر إلا وهو يصطدم بأخته ريحانة قد أقبلت هي الأخرىٰ تذكِّره بصلاة العصر، فلما رأت حاله، نظرت إلىٰ كتابها هي الأخرىٰ وتضاحكا ثم انصرف كلٌّ منهما إلىٰ صلاته.

سفيـــــر

ما أعظم أن يعيش الإنسان في الحياة لهدف وأن يحمل خلال عمره رسالة، وبقدر هذا الهدف وبعظم هذه الرسالة تشرف تلك الحياة ويفخر ذلك العمر، ويكون صاحبه كبيرًا كريمًا.

ومن الأهداف العظيمة في الحياة أن يحمل المرء رسالة دينه إلىٰ كلِّ مكان في الدنيا يفتح بها القلوب ويغذِّي بها العقول ويصحِّح بها السلوك، أن يكون سفير الإسلام إلىٰ من يتعامل معهم جميعًا، عائلته، وأهل بلده، وجميع من يتعامل معهم داخل وخارج وطنه.

عرف تاريخ الإسلام كثيرًا من السفراء الذين حملوا رسالته بصدق وبلغوها بأمانة وأثروا تأثيرًا عظيمًا في واقعه ومستقبله، أول هؤلاء السفراء مصعب، ذلك الشاب العظيم المبدع الجريء.

كان مصعب من شباب العرب المنعَّمين برغد العيش نتيجة لثراء والديه، ويوم بعث الله تبارك وتعالىٰ نبيَّه ﷺ بالإسلام كان مصعب من أوائل الذين فتح الله قلوبهم لدعوة

نبيِّه ﷺ، ورغم اعتراض أهله علىٰ ذلك أشدَّ الاعتراض إلا أن مصعب استمسك بإسلامه، ولما حرموه من أموالهم صبر علىٰ شظف العيش وهو المنعَّم المرفَّه وآثر اتباع رسول الله ﷺ علىٰ كلِّ شيء.

إنَّ القلوب التي تعرف الإسلام معرفة حقيقيَّة لا يمكن أن تتركه أبدًا والإسلام إذا خالطها مخالطة صحيحة لا يمكن أن ينتزع منها أبدًا، ولقد عرف مصعب الإيمان من كتاب الله ومن أحاديث رسول الله ﷺ، وكان كل يوم يمرُّ عليه يتوثق إسلامه أكثر من ذي قبل، لما ينزل كلَّ يوم علىٰ النبي ﷺ من آيات وما يراه بعينيه من أعمال وأخلاق رسول الله ﷺ.

لقد كان مصعب يحرص علىٰ حفظ الآيات والأحاديث حرصًا شديدًا حتىٰ إنه كان يجمع في صدره كلَّ ما أنزل الله علىٰ نبيِّه من القرآن وينتظر نزول جديده ليحفظه، فنوَّر الله قلبه وشرح صدره وطهَّر أعضاءه واختاره لمهمة عظيمة جدًّا كان لها أثر عظيم في خدمة الإسلام، ذلك أن النبي ﷺ لما ضاقت عليه مكة وتأذَّت الدعوة فيها فكَّر في الهجرة إلىٰ مكان آخر، وفي هذا الوقت أيَّدَه الله ﷻ بإسلام بعض العرب من يثرب،

وطلبوا إلىٰ النبي ﷺ أن يرسل إليهم بعض أصحابه يعرفهم بالإسلام ويعلمهم القرآن فأرسل إليهم النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه، وبهذا كان مصعب أول سفراء الإسلام خارج مكة، وهو الذي مهَّد الطريق لانتقال النبيِّ ﷺ والمسلمين من مكة إلىٰ المدينة.

عوَّض الله مصعب بن عمير عن صبره خير العوض ورفعه بتضحياته في سبيل الإسلام بالنفس والمال والراحة وكان كفء ذلك هذه المهمة العظيمة والعظائم كفؤها العظماء.

لقد كان مصعب أهلا لهذه الوظيفة العظيمة (**سفير الإسلام**) بما رزقه الله من صفات الذكاء والشجاعة والجرأة، ثمَّ بما تعلَّمه من رسول الله ﷺ من القرآن والسنَّة، وكان إلىٰ جوار ذلك قويَّ الحجة، واسع الصدر، صبورًا علىٰ المشاقِّ، متعوِّدًا علىٰ الغربة فقد هاجر قبل ذلك إلىٰ الحبشة مرتين.

وفي اليوم الموعود خرج مصعب بن عمير مهاجرًا من مكة إلىٰ المدينة للقيام بالوظيفة التي كلَّفه بها رسول الله ﷺ ويعلِّق المسلمون علىٰ نجاحه فيها آمالًا عظيمة، فإن ينجح

مصعب اليوم في سفارته تلك يُعزُّ الله بسببها الإسلام وأهله ويصبح لهم وطن آمن يأوون إليه ويسعدون بالعيش فيه.

ولقد كان مصعب يعلم خطورة ما كُلِّف به فحرص أشد الحرص علىٰ النجاح فيه حتىٰ لا يكون سببًا في نقصان الدِّين أو تأخر وصوله إلىٰ النَّاس أو تنزُّلِه عن مكانته اللائقة به.

قطع مصعب المسافة من مكة إلىٰ المدينة وحين وصل إليها كان بعض أهلها في انتظاره، وهناك سكن في بيت أسعد بن زرارة، وبدأ مصعب مهمته العظيمة بدقة وترتيب، أخذ يدعو الناس سرًّا وبدأ الإسلام يفشو ويكثر أهله ومصعب يتعهدهم بالتعليم والتوجيه ويوصيهم مع ذلك بالكتمان والاستخفاء حتىٰ يتهيَّأ لهم الظرف المناسب للظهور والاستعلان، لم يكن مصعب وأسعد رضي الله عنهما ينتظران حتىٰ يأتيهما الرجل راغبًا في الإسلام، أو يأتيه المؤمن يتعلَّم العلم أو القرآن بل كانا يذهبان إلىٰ حيث يرجوان الخير، يلتقطان المؤمنين التقاطًا، وكان يتواعد مع أهل كلِّ ناحية يأتيهم يومًا، ورغم السريَّة التامة التي كانت تتم بها لقاءات مصعب بالمؤمنين أو المتطلِّعين للإيمان إلا أنَّ بعضَ أخبارِه كانت

تتناثر فتصل إلىٰ مسامع الآخرين، وكادت تقع بسبب من ذلك حوادث عظيمة لولا أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان يتعامل معها بفطانة الداعية وذكاء السفير فتنقلب إلىٰ نفحات وبشريات.

واعد مرة هو وأسعد بن زرارة بعض الراغبين في الإيمان عند مكان في المدينة، فلما استقرَّ بهم المجلس وأخذ يحدثهم ويتلو عليهم آيات القرآن إذا بسيد من سادات المدينة هو سعد بن معاذ قد أتىٰ مُغضَبًا في وسطه سيفه وفي يده رمحه وعليه ثياب الحرب فوقف عليهم في مجلسهم وقال لأسعد بن زرارة: علام تأتينا في دورنا بهذا الوحيد الفريد الطريح الغريب يُسفِّه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه، لا أراكم بعدها بشيء من جوارنا.

لقد اكتفىٰ سعد بن معاذ بطردهم من المكان، وربما فعل ذلك لأن أسعد بن زرارة ابن خالته، إنه رجل يرعىٰ حق القرابة ويعظم الرحم ويحافظ علىٰ صلاتهما وردُّ فعله علىٰ الداعيين الكريمين هيِّن ليِّن ليس بالشديد القاسي ولا الغليظ المتهوِّر، وقد أطمعهما ذلك في الرجوع إلىٰ نفس المكان بعد حين لا سيما أن أهل المكان كانوا يتوافدون عليهم رغبة في

الإسلام وينصتون بقلوبهم وتفيض أعينهم لسماع آيات القرآن، فجازف مصعب وأسعد مرة أخرىٰ بالذهاب لأجل أن لا يفوت أهل هذا المكان ما معهم من الخير، وسمع سعد بن معاذ برجوعهم فجاء إليهم وتحدث إليهم بحديث شديد لكن حديثه هذا كان أقلَّ في شدَّته من الحديث الأول، لقد كان لينًا هينًا في كلامه مع الصاحبين المؤمنين، وفطن الصديقان إلىٰ ذلك اللين في حديث سعد فقال له أسعد: يا ابن خالة! اسمع من قول مصعب، فإن سمعت منكرًا فارددده بأهدىٰ منه، وإن سمعت خيرًا فأجب إليه، فقال: ماذا يقول؟ وجلس سعد بن معاذ يستمع، فقرأ عليهم مصعب بن عمير رضي الله عنه قول الله تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ١- ٣].

فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف، يعني هذا كلام لا يُنكر، إنه كلامٌ حسن وقولٌ جميل، وجلس سعد في مجلسهم إلىٰ النهاية يستمع القرآن، وفي نهاية المجلس رجع سعد وقد هداه الله لكنه لم يُظهر لهم الإسلام حتىٰ كان في قومه فدعاهم إلىٰ الإسلام وأظهر لهم إسلامه، وقال: من شك

فيه من صغير أو كبير أو ذكر أو أنثىٰ فليأتنا بأهدىٰ منه نأخذ به، فوالله لقد جاء أمر عظيم، فلما سمع قومه رأيه في الإسلام أسلموا جميعهم إلا من لا يُذكر، ولم يزل مصعب بن عمير في المدينة يدعو ويهدي الله علىٰ يديه حتىٰ قلَّ دار من دور المدينة إلا أسلم فيها ناس لا محالة، وأسلم أشرافهم، وكان المسلمون أكثر ناسها وأعز أهلها وصلُح أمرهم.

إنَّ القصد إلىٰ دعوة الكبراء والأشراف يوفِّر الكثير من الوقت علىٰ الدعوة والدعاة لأنهم حين يسكن الإيمان قلوبهم يدعون إليه أقوامهم فيلبون، وينادون إليه أهليهم فيستجيبون، فإذا قالوا أسمعوا وإذا أمروا أُطيعوا.

إلىٰ جوار أن إيمانهم أمان للدعوة وحماية للمؤمنين بها من الضعفاء.

وهذا واجب عظيم اهتمت به الدعوة الأولىٰ وأهملته الدعوة المعاصرة!

كانت الطريقة التي سلكها مصعب في حواره مع سعد طريقةً حسنة وكانت سبيل مصعب بن عمير إلىٰ قلوب المسلمين، وبهذا استطاع أن يأسر قلوبهم ويسلب أرواحهم، وبمثلها تعامل مع أسيد بن حضير سيد قومه فآتت ثمرتها

المرجوة، فذات يوم وهو يعظ الناس فوجئ مصعب بقدوم أسيد بن حضير إلىٰ مجلسه وهو يتفجر غضبًا، وحين وقف علىٰ مجلسهم كان ثائرًا جدًّا، وتكلَّم معهم بكلام شديد قاسٍ، وأمام هذه الثورة العارمة قام مصعب هادئًا مبتسمًا ابتسامة وضيئة وقال بصوت عذب رقيق لأسيد: أو لا تجلس فتستمع؟ فإن رضيت أمرنا قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

فما ملك أسيد بن حضير نفسه أمام هذا الكلام العاقل والتصرف الرزين إلا أن قال له: أحسنت وأنصفت، ثم جلس أسيد يصغىٰ لكلام مصعب، ومع استماعه آيات القرآن أخذت أسارير وجهه تنفرج وأمام شرح مصعب لدعوة الإسلام بدأ يقتنع، ولم يفرغ مصعب من كلامه حتىٰ وقف أسيد يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وكان إسلام أسيد بن حُضَير سببًا في إسلام كثير من أهل المدينة كما كان الحال في إسلام سعد بن معاذ رضي الله عنهما.

لما كثر المسلمون في المدينة أعلنوا أمرهم وما عادوا يستخفون، حتىٰ إنهم كانوا يصلون في جماعات، ثم إن مصعب رضي الله عنه جمعهم يوم الجمعة وصلوا الجمعة فكانوا

بذلك أول مجموعة تصلي الجمعة في المدينة وكان مصعب هو من خطبهم وصلىٰ بهم.

إنَّ الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولقد كان مصعب رفيقًا هادئًا في علم ليِّنًا حكيمًا في بصيرة، وتلك هي أهمُّ مقومات الداعي إلىٰ الله، فإنَّ الله بعث نبييه موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام إلىٰ أشد النَّاس عُتوًّا وكُفرًا وأعظمهم تكبرًا وجبروتًا وهو فرعون، ومع ذلك قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

لقد نجح مصعب رضي الله عنه في مهمته التي أوكلت إليه نجاحًا عظيمًا، أسلمت المدينة كلها لله وآمنت برسوله، إلا من نفر قليل جدًّا، وقد فكَّر مصعب بن عمير رضي الله عنه بعد اكتمال مهمته بالرجوع إلىٰ رسول الله ﷺ لإعلامه بالموقف ليبني النبي ﷺ علىٰ أساس تلك المعلومات خططه المستقبليَّة، وبالفعل سافر مصعب إلىٰ مكة وأوقف النبي ﷺ علىٰ نتائج وظيفته وفرح النبي والمسلمون بهذه الأخبار فرحًا كبيرًا، وترتَّب علىٰ ذلك النجاح تقريرُ النبي ﷺ الهجرة إلىٰ المدينة المنوَّرة، وكانت دولة الإسلام التي شعَّ منها نوره إلىٰ سائر أرجاء الدنيا، ويعود الفضل في ذلك إلىٰ مصعب بن عمير

الذي أحسن أداء وظيفته كسفير للإسلام ينفِّذ تعاليم رسول الله ﷺ ويجتهد في توظيف إمكانياته وقدراته لنجاح مهمته فكلل الله سعيه بالنجاح الكبير(١).

ولئن كان عمل مصعب بن عمير رضي الله عنه عظيم الأثر في الإسلام فإنَّ بإمكان كلِّ مسلم في كل زمان ومكان أن يقوم بمثل عمل مصعب حين يكون سفيرًا للإسلام في أسرته، في محيط زملائه ومعارفه، في وطنه، خارج أرضه، مع كل الناس وفي كل مكان، وذلك بتعلُّم الإسلام والعمل به والتخلُّق بأخلاقه والدعوة إليه برفق وحكمة ولباقة وفطنة.

وتحتاج وظيفة سفير كما رأينا إلىٰ مواصفات الشجاعة والجرأة والذكاء واللباقة ويساعده علىٰ ذلك: سعة ثقافته، وطول خبرته، وكثرة ممارساته، ودقة معلوماته، وإلمامه بالتاريخ والواقع، ومعرفته بطبائع الأشخاص وحقائق المواقف.

---

(١) انظر في سيرة مصعب: الطبقات، لابن سعد (٣/ ١١٦)، وأسد الغابة، لابن الأثير (٤/ ١٣٤).

معلِّم

العلم مفتاحُ كلِّ خَير، يعرف من خلاله الإنسان ربَّه ونفسه ويرتقي إلىٰ أعلىٰ الدرجات، ولئن كنتَ عالمًا أو متعلمًا أو محبًّا للعلم فأنت علىٰ خير عظيم، فكيف بك لو جمعت هذه الفضائل الكبيرة معًا، وذلك حين تتعلم العلم فتعلمه ثم تتوجَّه إلىٰ الأجيال الجديدة الناشئة تعلمهم العلم وتربيهم علىٰ الخير؟ ولذلك كان المعلِّمُ صاحب مكانة رفيعة في الإسلام، فهو وارث عِلم رسول الله ﷺ، وحامل راية التعليم للخير من بعده، ولهذا يثني عليه الله تبارك وتعالىٰ وتستغفر له ملائكته ويدعو له أهل السموات والأرضين حتىٰ النملة في جحرها وحتىٰ الحوت في البحر، وذلك لتعليمه الناس الخير.

ولهذه المكانة الرفيعة التي يتبوأها المعلِّمون حرص الأخيار في كلِّ زمان ومكان علىٰ القيام بهذه الوظيفة المباركة، وكيف لا وأسوتهم رسول الله ﷺ الذي قال الله عنه:

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾، [البقرة: ١٥١].

وخرج ﷺ يومًا علىٰ أصحابه رضي الله عنهم فوجدهم يقرؤون القرآن ويتعلمون فكان مما قال لهم: «**وإنما بعثت معلمًا**»(١)، بأبي وأمي ﷺ.

وكان من الصحابة معلِّمون، منهم علي وعثمان وأُبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، وغيرهم كثير رضي الله عنهم وأرضاهم، وعلىٰ خطاهم سار مَن بعدهم مِن التابعين وعلماء الأمة.

ومن هؤلاء المعلِّمين البارعين عالمٌ مبدعٌ عاش في القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ومع أنه رحل عن دنيا الناس عام (٧٢٨هـ)، أي منذ ٧٠٠ سنة وزيادة، إلا أنَّ قمره لا زال يضيء الدنيا عبر هذا الزمان وسيظل إلىٰ ما شاء الله تعالىٰ، ويعود الفضل في ذلك إلىٰ صفات عظيمة جمعها الله له، فقد كان نجيبًا، ذا همَّة، حريصًا علىٰ وقته، جامعًا بين التدريس والتصنيف والعبادة والدعوة، وهذا العالم هو أحمد ابن تيمية.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو، وفي سنده ضعف، ويشهد له حديث: «**إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا ولكن بعثني معلمًا وميسرًا**»، رواه مسلم (١٤٧٨) من حديث جابر.

أدرك ابنُ تيمية من العلوم حظًّا وفيرًا، بل درس علوم الإسلام كلها فهمًا واستيعابًا؛ كاد أن يستوعب السنن والآثار حفظًا، وكان إن تكلم في التفسير، أو أفتىٰ في الفقه، أو ذاكر في الحديث، أو حاضر بالملل والنحل لم يُرَ أوسع منه علمًا ودراية حتىٰ فاق جميع زملائه وشيوخ عصره، وشهد له بذلك كل من لقيَه.

ومن القصص الثابتة عنه في صغره: أنه كان يمشي في الطريق حاملًا ألواحه، ذاهبًا إلىٰ الكُتَّاب، فاعترض طريقه يهوديٌّ كان منزله في طريق الكتَّاب بمسائل يسأله عنها لِما كان يلوح عليه من الذكاء والفطنة وإشارة الناس إليه بالعلم، وكان الطفل يجيبه عنها سريعًا؛ حتىٰ تعجَّب منه اليهودي، ثم إن ابن تيمية صار كلما مرَّ بهذا اليهودي يخبره بأشياءَ تدلُّ علىٰ بطلان عقيدته، وفساد مذهبه وطريقته، فلم يلبث أن أسلَمَ اليهودي وحسُن إسلامه، أسلم ذاك اليهوديُّ علىٰ يد الطفل الصغير أحمد، وحسن إسلامه، وهو يافع ما زال صغيرًا، وإن كان هذا عجيبًا فلا عجب أن يصير هذا الطفل بعد ذلك هو شيخ الإسلام وحسنة الأيام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن تيمية، لقد أنبته اللهُ أحسن النبات

وأوفاه، فكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية عليه واضحة.

رزق الله تعالىٰ ابن تيمية ملَكةً عظيمة في التدريس والتربية فكان مؤثرًا بعلمه وسلوكه في تلامذته، ويبلغ عدد تلامذته المباشرين المئات، ومن رُزق حسن التدريس وحسن البيان جذب أفئدة النَّاس إليه، لما جلس ابن تيمية للتدريس بدار الحديث بدمشق حضر عنده علماء الوقت وأئمته من الشيوخ والقضاة وجلس بين يديه الطلاب وكان درسًا هائلًا، وجلس في الجامع الأموي بعد الصلاة علىٰ منبر هيء له لتفسير القرآن، فابتدأ من أوله، فكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجمع الغفير، واستمر في ذلك مدة سنين متطاولة علىٰ هذا المنوال، وكذلك كانت دروسه في علوم كثيرة.

ولقد كان: مفتي العالم الإسلامي، فقد كانت الأسئلة تأتيه من أنحاء العالم الإسلامي؛ من جزيرة العرب، والشام، والعراق، ومصر، وتركيا، وأصبهان، ومراكش، والأندلس، وتعود كتب الشيخ وردوده عليها إلىٰ هذه البلدان فيتعلَّم منها مَن بها من الشيوخ والطلاب.

وتحفظ لنا فتاويه تلك علومًا جمة وفيرة؛ إذ جمعت

أصول العلوم ولهذا توفر علىٰ تحقيقها وشرحها كثير من العلماء والعظماء وعم نفعها في شتىٰ بقاع العالم الإسلامي.

وزاد من حبِّ الطلاب والناس عامة لابن تيمية وقوفُه مع الحق حيث كان وحكمه بالقسطاس المستقيم في مسائل العلم دون تعصب أو محاباة، وسعيه في مصالح الناس ولو كان في ذلك خطرًا علىٰ حياته، لما حضر قازان قائد المغول بجيشه لمهاجمة دمشق اقترح ابن تيمية علىٰ أعيان البلد المسير إليه لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فتوجهوا إليه، فاجتمعوا به، وكلمه الشيخ ابن تيمية كلامًا قويًّا أبان فيه عن حجة قويَّة وحصل بسببه مصلحة عظيمة عاد نفعها علىٰ المسلمين وغير المسلمين من سكان دمشق(١).

لقد كان ابن تيمية معلِّمًا بأقواله وأفعاله لكل من حوله، ولهذا اتخذه طلابه أسوة فكانوا في العلم والعمل علىٰ طريقته يحتذون سبيله ويقتفون أثره، فنبغ عدد كبير منهم في علوم شتىٰ صاروا فيها أعلامًا، بل منهم من طبَّقت شهرته الآفاق في علوم الإسلام كافة، ويكفي أن نسمع أسماء: ابن القيم،

(١) انظر في سيرة ابن تيمية: الجامع لسيرة شيخ الإسلام بن تيمية، د. بكر أبو زيد وآخرون، دار عالم الفوائد.

والـذهبي، وابـن كثيـر، وابـن مفلـح، وابـن عبـدالهادي، وابن رجب، وابن الـوردي، والبـزار، والبرزالـي، وغيـرهم من الفحول كثير فنعلم أن الدنيا تتلألأ إلىٰ اليوم بأنوار نجومهم.

لقد امتدَّ عمر ابن تيمية بأعمار تلامذتـه هـؤلاء، وأضـافوا إلىٰ سني عمره السبع والستين عقـودًا إضـافيَّة، وكـانوا شـهودًا عـدولًا علىٰ حيـاة شـيخهم وتـاريخ معلِّمهـم وكـانوا بسـيرهم وعلومهم ثم بمصنَّفاتهم وكتبهم شواهد قائمة علىٰ عظيم تأثير ابن تيمية فيهم وفي عصره.

إنَّ كُتبَ العـالِم وتلامذتَـه هـم أبنـاؤه المخلِّـدون، فلـيس الخلود أن تكـون فحسـب عالمًـا، بـل الخلـود أن تكـون معلمًـا لأجيال ومربيًّا لنشء يحمل عنك علمك ويعلمه للنـاس معـك وبعدك فيكـون تلامـذتهم تلامـذة غيـر مباشـرين لـك، وكـذلك كان ابن تيمية.

لقد كان كلُّ واحد من هؤلاء التلامـذة الـذين صـاروا بعـد ذلـك علمـاء وأئمـة جهابـذة يقـول في حلقتـه وخطبتـه مـا علمـه ووعاه عن ابن تيمية، ويدون في مؤلفاته وكتبـه علـمَ ابـن تيميـة، ويصرِّح بما كان بينه وبين معلِّمه فيقول: حدثني شيخ الإسـلام ابـن تيميـة، وسـمعت شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة يقـول،

وكان الشيخ تقي الدين يختار ذلك، وهكذا، وفي كل ذكر لاسمه يشفعونه بالدعاء له بالرحمة والمغفرة فيقولون تارة: قدس الله روحه ونور ضريحه، وتارة يقولون: رفع الله قدره، وتارة يقولون: رفع الله مقامه في عليين، وهكذا في برٍّ عظيم بمعلِّمهم الكريم، وكيف لا وهو الذي جعله الله سبب خروجهم من ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم ووسيلة هدايتهم من طرق الضلالة والغواية إلىٰ لزوم الصراط المستقيم؟!

وإذا كانت الدراسات التربوية ترىٰ أن أفضل طرق قياس مستوىٰ المعلم تقييم طلابه، فباعتماد هذه الدراسات نتوصَّل إلىٰ أنَّ ابن تيمية كان معلمًا مرموقًا من طراز رفيع.

وهكذا يعلو شأن معلَّم الناس الخير في كلِّ زمان ومكان، فيبقىٰ ذكره في الآخرين بالخير، ويثني عليه الناس، ويدعون له بالرحمة والمغفرة، ويزاد في حسناته بمقدار ما علَّم وما يُعلِّمه من علمهم إلىٰ يوم الدين، وبهذا كله ترتفع درجته في الجنة إلىٰ أعلىٰ مقام.

هذه هي مكانة المعلِّم في الدين والدنيا، والذكيُّ الفطن هو من يأخذ من هذا عبرة فيمدَّ في حياته حيوات ويزيد علىٰ عمره أعمارًا فيعلِّم ما يتعلَّمه من علم إلىٰ من بعده، ويورِّثه

للأجيال الناشئة، ويحرص علىٰ أن يكون قدوة لهم في الخير، فالتلميذ لأستاذه بمثابة العمر الثاني.

وبالطبع نحن لسنا في حاجة لمعلِّم عادي فالدنيا تمتلئ بهؤلاء وتفيض، لكننا نحتاج إلىٰ معلِّمٍ مبدع يكوِّن نفسه تكوينًا علميًّا قويًّا، ويُلمُّ بمعطيات عصره في تخصصه، ويتعرَّف إلىٰ آليات الإبداع في التكنولوجيا وغيرها، كما أننا لا نريد معلِّمًا يكون في تعليمه يؤدِّي وظيفة ويقوم بمهمة رسميَّة فهؤلاء فوق الحصر كذلك، إنما نحتاج إلىٰ معلِّم يقوم برسالة، يحمل مهمَّة ربانيَّة علىٰ طريق إحياء الأمة، هدفه بناؤها الحضاري وتقدمها لترتفع فوق الأمم ولتستعيد وضعها في ريادة الدنيا، وهذا هو المعلم المبدع الذي نرجوه سواء في علوم الدنيا أو في علوم الدين، فالإسلام لا يعرف الفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا إلا في القسمة التخصصيَّة فقط، لكن كليهما في الدرجة والرتبة بنظر الشرع وتحصيل الأجر متساويان ما أخلص المعلم النية وأحسن العمل.

إضاءة: يتخرَّج المعلِّم في كليَّات عديدة، ككليَّات الدراسات الإسلامية وأصول الدين والشريعة، وهؤلاء يُدرِّسون العلوم الشرعيَّة، وفي كليَّات التربية والعلوم وغيرها

وهؤلاء يُدرِّسون العلوم المدنيَّة.

وتتوسع مداركه عن طريق الإلمام بمادته ودراستها دراسةً متقنة لا يفوت خلال ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا عرفها وأحاط بها عِلمًا.

وتتنوَّع ملكاته بالإحاطة بشيء من العلوم الأخرىٰ التي تساعده علىٰ ضبط وإتقان مادته.

ويبدع في تخصصه بحضور الدورات التأهيليَّة والاطلاع علىٰ الجديد في العلم ووسائل التأثير الفعال وأساليب التدريس وملكات التواصل.

ويحقق مراده حين يحب العلم ويحبه العلم ويتبادل هو وطلابه الحب وينتفع تلامذته بما علمهم ويؤثر فيهم ويعدل من قناعاتهم الخاطئة ويقوِّم ما يرىٰ في سلوكهم وأخلاقهم من اعوجاج.

فإن استطعت أن تحقق ذلك فقد نجحت في أن تكون معلِّمًا مبدعًا ومدرِّسًا مؤثِّرًا يفيد الأجيال ويقبسون من هديه وعلمه، وهنيئًا لك وألف بركة.

فقيهـــة

إذا صَدَق إسلامُ المرءِ وضع إمكاناته وقدراته جميعًا في خدمة الإسلام، بل أصبح الإسلام محياه ومماته، وهذا ما حدث بشأن بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فمنذ أسلم أبو بكر بذل جميع جهوده وممتلكاته في خدمة الإسلام، بل جعل أهل بيته كذلك في خدمة الإسلام، فإن كان هو بنفسه في صحبة رسول الله ﷺ يلازمه ويناصره، وبجهوده في طريق الدين يدعو إليه ويعرِّف به، وبماله في فداء العبيد والمستضعفين يحررهم ويعتقهم، فقد كانت زوجته أم رومان وأبناؤه عبد الرحمن وأسماء وعائشة في خدمة الإسلام والمسلمين؛ يؤيدونهم ويشجعونهم وإضافة إلىٰ ذلك يقدمون ما استطاعوا من جهود وخدمات داخل البيت وخارجه..

ولنا أن نتصور ذلك حين نعلم أن الهجرة ما كانت إلا من بيت الصديق رضي الله عنه ، وما كان تهيئة الطعام اللازم للهجرة، ولا إعداد الرواحل التي يركبها المهاجران الكريمان، ولا تأمين الطريق والزاد المطلوب للرحلة، إلا بجهود أهل هذا البيت المبارك.

ولم تتوقَّف عطايا بيت الصديق وخدماته للإسلام عند تلك الشئون المادية فحسب بل تخطتها إلىٰ شئون أخرىٰ معنوية علمية عظيمة، فلقد كان أفراد البيت المبارك يهتمون بالقرآن والسنة ويتعلمون العلم والشعر والحكمة حتىٰ نبغت ابنتهم عائشة في ذلك كله وصارت فقيهة من فقهاء الإسلام الكبار بل هي أعظم فقيهة عرفها التاريخ، فقيهة تجمع من علوم القرآن والسنة ومن لغة العرب شعرًا ونثرًا ما يعجز عنه العصبة أولو الفطنة من الرجال.

كان أثر ملازمة أبي بكر للرسول ﷺ عظيمًا علىٰ أهل بيته، فإنه كان يتلقَّىٰ القرآن الذي ينزِّله الله علىٰ نبيِّه ﷺ غضًّا طريًّا من فمه الشريف عليه الصلاة والسلام ثم يذهب به إلىٰ بيته يعلِّمه لأبنائه وكذا حديث رسول الله ﷺ، وقد كانت عائشة، ابنته الصغيرة، أحرص بنيه وأحفظهم وأفهمهم لما يلقيه إليهم أبوها أبو بكر، حتىٰ اجتمع لها من العلم بالقرآن والسنة شيء كثير، وكانت مع هذا تسمع شعر الشعراء فتحفظه وتسمع خطب الخطباء وحكم الحكماء فتعيها.

وقد ظهرت تلك الثقافات في أحداث حياتها وشاع أثرها في وقائع سيرتها فدلَّت علىٰ عمق علمها وغزارة معارفها،

لما أشرفت عائشة علىٰ مرض أبيها، كانت تعزي نفسها ببيت من الشعر تقول:

لَعَمْـرُكَ مَـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـنِ الْفَتَـىٰ

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَـاقَ بِـهِ الصَّـدْرُ(١)

فنهاها أبو بكر عن ذلك وأمرها بتلاوة القرآن، وقال لها: لا تقولي هكذا يا بنيَّة..

ولكـن قُـولِي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩]، ثم نسيت فعادت وأنشدت:

وأَبْـيَضَ يُسْتَسْـقىٰ الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ

ثِمَـالَ اليَتَـامىٰ عِصْـمَةٌ للأرامِـلِ(٢)

فقال أبو بكر: ذَاكَ رَسُولُ الله ﷺ.

وهكذا كانت عائشة تتمثل بالشعر تتداعىٰ إلىٰ عقلها

---

(١) من شعر حاتم الطائي؛ انظر: تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: (٦١/ ٢٧٦).

(٢) من شعر أبي طالب بن عبد المطلب؛ انظر: البداية والنهاية (٩/ ٣٢٢).

فرائد حكمته وتجري علىٰ لسانها أمثاله السائرة في المواقف والموارد المختلفة.

ثم كان لزواجها من رسول الله ﷺ فضل عظيم وأثر كبير في غزارة علومها ودقة فقهها واتساع أفقها وتنمية ملكاتها.

تزوَّج النبي ﷺ عائشة وهم في مكة، وبعد أن هاجروا إلىٰ المدينة وتحديدا في السنة الثانية من الهجرة بعد غزوة بدر انتقلت لتعيش في بيت زوجها رسول الله ﷺ وهناك انفتح لعائشة البحر المحيط من علم المصطفىٰ ﷺ فأتمت جمع القرآن الكريم كلِّه وحفظت من السنة النبويَّة قدرًا عظيمًا تخطَّىٰ (٢٢٠٠) حديثًا، فضلًا عن سؤالاتها ومناقشاتها لرسول الله ﷺ واطلاعها علىٰ أفعاله وأخلاقه ومعرفتها بصفاته وسماعها لفتاويه وقضاياه، فرَوَتْ عن النبي ﷺ عِلمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

وكانت أيضًا تسمع ما دار في خارج بيتها فتحفظه وترويه عن أبيها، وعن عمر، وفاطمة، وسعْد، وحمْزَة بن عمرو الأسْلمي، وجُدَامَةَ بنتِ وهْب، حتىٰ صارت عائشة رضي الله عنها بحق أفْقَه نِساءِ الأُمَّة علىٰ الإطلاق.

لقد اختار الله عائشة لتكون زوجة لنبيه ﷺ، واختار تعالىٰ أن تكون صغيرة في السنِّ حتىٰ تستطيع الاستيعاب عنه ﷺ فعاشت بعد النبي ﷺ مدة طويلة تخبر الناس بالذي تعلمته عنه ﷺ إلىٰ جوار بقية أصحاب النبي ﷺ .. حتىٰ قال الحاكم في (**المستدرك**): إنَّ رُبْعَ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ نُقِلَت عَن السَّيدَة عَائِشَة رضي الله عنها .

وقد شهد بفقه عائشة رضي الله عنها العلماء والفقهاء في كل زمان ومكان قال الزُّهريُّ: لو جُمِع عِلمُ عائشة إلىٰ عِلمِ جميعِ النساء، لكان علمُ عائشةَ أفْضلَ.

كما أنَّ الله وهَبَها الذكاءَ والفِطنة، وسُرعةَ الحافظة، حتىٰ قال الإمام ابن كثير: لم يَكُن في الأُممِ مثلُ عائشةَ في حِفْظها وعِلْمها، وفصاحتِها وعَقْلِها.

ويقول الإمام الذهبيُّ عنها: أفْقَهُ نِساء الأمَّة علىٰ الإطلاق، ولا أعْلمُ في أمَّة محمَّد ﷺ، بل ولا في النِّساء مطلقًا امرأةً أعلمَ منها.

ويقول عُروةُ بنُ الزُّبَيْر: ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بفِقه، ولا بِطبٍّ ولا بِشِعر من عائشةَ رضي الله عنها .

وقال فيها أبو عُمرَ بنُ عبد البرِّ: إنَّ عائشةَ كانتْ وحيدةً بعصرها في ثلاثةِ علوم: علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشِّعر.

وفوق ذلك كانت عائشة رضي الله عنها المرجعَ لكِبار الصحابة رضي الله عنهم، فكم من مسألة راجعوها فيها خاصَّة عندَ المواقف والملمَّات فيلجؤون إليها لحل المشكلات وفض النزاعات، وراجعتهم هي في كثير من المواقف لما سمعت أقوالهم وآراءهم فيها، وكم لها من الاستدراكات والتنبيهات علىٰ كثير منهم.

كما كانتْ تُفتي بما لدَيْها من عِلمٍ وفِقه في عهد الخليفتين الراشدين عمرَ وعثمانَ رضي الله عنهما.. ولذلك سجل الإمام ابن حزم عائشة رضي الله عنها في مقدمة أصحاب الفتيا من الصحابة الذين كتبهم علىٰ مراتبهم في كثرة الفتيا.

وهذا منهم شهادة بفضلها وعظيم علمها رضي الله عنها، يقول الصحابي الجليل أبو موسىٰ الأشعري رضي الله عنه:

ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا، وقوله يدل علىٰ أنها كانتْ غزيرةَ العلم، موسوعية المعرفة.

ويقول الزبير بن العوام رضي الله عنه: ما رأيت أحدًا من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة رضي الله عنها، وهذا يمثِّل تنوُّعًا وثراء في حياة العالم والفقيه، فكيف إذا كانت صاحبة هذا التنوع أنثىٰ؟ إنه لأعجب وأجمل!

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بسُنن رسول الله ﷺ ولا أفقهَ في رأي إن احتُيج إلىٰ رأيه، ولا أعلم بآية فيما نزلتْ، ولا فريضة - مِن عائشة، وفي ذلك زيادة شهادة علىٰ ما سبق تتضمن أنها كانت صاحبة رأي واجتهاد فوق أنها صاحبة علم وحفظ وأثر.

وهذا مسروق بن عبد الله التابعي الكبير يقول: نحلف بالله لقد رأينا الاكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون عائشة عن الفرائض.

هذه منزلة عائشة رضي الله عنها في الفقه وعلوم الإسلام بين الصحابة فكيف بها بين غيرهم من علماء وفقهاء الإسلام الذين جاءوا من بعدها؟ لا شك أنها إذا قيست بأي منهم لتفوَّقت عليه ورجح ميزانها ميزانه.

وكانت عائشة رضي الله عنها مع ذلك فصيحة بليغة، يقول موسىٰ بن طلحة: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة رضي الله عنها.

ويقول الأحنف بن قيس: سمعت خطبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أحسن ولا أفخم من فم عائشة رحمة الله عليهم أجمين.

وتزخر كتب التاريخ والسير والتراجم بالأخبار العجيبة المعجبة عن عائشة رضي الله عنها وأقوالها، مما يعلم منه مكانتها وفقهها رضي الله عنها.. وكثير من العلماء قد ألفوا كتبًا خاصة في سيرتها وأخبار حياتها، أو في بلاغتها وفصاحتها.

ومنهم: من مدحها بقصائد رائعة.. **ومنهم**: من جمع الأحاديث التي وردت في فضائلها في كتاب أو جزء حديثي.

ومن العلماء: من ألف في أجوبتها علىٰ أسئلة الصحابة والتابعين.. **بل منهم**: من ألف في المسائل التي استدركتها رضي الله عنها علىٰ الصحابة وحاول الإجابة عنهم رضي الله عن الجميع، فكانت رضي الله عنها من يومها محور اهتمام العلم والعلماء إلىٰ يوم الناس هذا، وستبقىٰ كذلك إلىٰ ما شاء الله،

فالمكتبة الإسلاميَّة كلَّ يوم تزخر بالجديد في شأن الصديقة بنت الصديق.

حمل العلم عن عائشة رضي الله عنها ثلَّة كريمة من أهل الفضل والعلم فعلَّموا به العالمين.. **منهم**: عروة بن الزبير، القاسم بن محمد بن أبي بكر، مسروق بن الأجدع، عمرة بنت عبدالرحمن الأنصاريَّة، ومعاذة العدوية، وغيرهم رحمهم الله، وقد أحصاهم بعض العلماء فقاربوا الستين عالمًا(١).

وهكذا جمعت عائشة رضي الله عنها علمًا كثيرًا كانت به قدوة للعالمين من ورائها عامة وللنساء خاصَّة، رضي الله عن العفيفة، الطاهرة، الحصان، الرزان، المبرَّأة من فوق سبع سماوات، حبيبة حبيب الله وحليلته وزوجه في الدنيا والآخرة، ونشهد الله أنا نحبها ونترضىٰ عنها ونتقرَّب بحبِّها إلىٰ الله عز وجل.

(١) انظر في سيرة أم المؤمنين عائشة: السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء العالمين، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق الطبعة الخامسة.

رائد فضاء

يهتم الاسلام بالعلوم المدنية كالطب والعلوم والفلك والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس اهتمامًا كبيرًا ويوليها أهمية عظيمة، وإذا تخصص المسلم في علم منها ونفع إخوانه المسلمين بتخصصه فيه كان له من الأجر والثواب ما للمسلم الذي يدرس علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وغيرها سواء بسواء.

ومن نبغ في علم من هذه العلوم جميعًا وكان من رواده فقد قدم بنبوغه خدمة جليلة لدين الله ﷻ.

وعبر التاريخ الإسلامي والمسلمون يدرسون هذه العلوم وينبغون فيها حتىٰ كانوا روَّاد الدنيا في علوم الشريعة وعلوم الطبيعة معًا، وهم الذين علَّموا الدنيا كلها وعنهم أخذ علماء العصور الحديثة أسس العلوم التي كانت سبب تقدمهم وقيام حضارتهم.

لم نكن يومًا من أيام تاريخنا المجيد عالة علىٰ أحد، فلم نكن نعرف استيراد الأفكار ولا الأكل علىٰ موائد اللئام، نعم ما كان من خير استفدناه ونسبناه لأصحابه وشكرناهم، ثم

طورناه وتقدمنا به خطوات ثم بذلناه للنَّاس كافة العرب والعجم المسلم والكافر، ليعود بالفائدة علىٰ الجميع... وذلك حين كنا نستمسك بديننا ونتبع رسولنا ونحسن القيام بمهامنا التي خلقنا الله تعالىٰ لأجلها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وكان من العلوم التي ساهم فيها المسلمون مساهمة عظيمة بفضل تمسكهم بدينهم: علم الفلك، فقد نبغ فيه ثلة كريمة أفادت الدنيا بجهودها وبنىٰ اللاحقون علىٰ ما قدموه من جهود في مجاله، من هؤلاء النابغين:

محمد الفرغاني، صاحب الأبحاث المبتكرة في تحديد طول السنة تحديداً مضبوطًا، وأطوال الليل والنهار، وحركات الكواكب والنجوم.

ومحمد البتاني، الفلكي المسلم الذي صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها (بطليموس)، ووصل إلىٰ نتائج جديدة لم يصل إليها أحد من قبله، وصاحب كتاب (**الزيج الصابئ**).

وقد ترجم هذا الكتاب إلىٰ اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، كما طبع في أوروبا عدة طبعات، لما أحدثه من

تأثير كبير في علم الفلك.

وابن يونس المصري، الذي قام بأبحاث حول كسوف الشمس وخسوف القمر، وتعيين الاعتدال الشمسي، وتحديد خطوط الطول.

وأبو الوفاء البوزجاني، الذي اشتهر بالجداول الفلكية الدقيقة التي وضعها.

وغير هؤلاء كثير من العلماء البارعين اللامعين.

لقد تقدم المسلمون في دراسة علم الفلك تقدمًا كبيرًا، وكان الفضل في ذلك كله للإسلام الذي ربط هؤلاء العلماء ومعهم جميع المسلمين بالكون من حولهم؛ في عباداتهم، ومعاملاتهم، وتوجيهاته الكثيرة في القرآن والسنة حول هذا المجال العلمي العظيم.

ولننظر إلىٰ المسلم وهو يبدأ يومه قبل شروق الشمس فيراقب مطلع الفجر لكي يصلِّيٰ الصبح، ويظل يتابع مسير الشمس في النهار ليصلي الظهر عند الزوال، ويصلىٰ العصر عندما يصير ظلُّ كل شيء مثليه، ثم في آخر نهاره يراقب الغروب ليصلي المغرب، ثم يراقب الغسق بعده ليصلي

العشاء، وذلك كله ليضبط صلاته فيصلىٰ كل صلاة في وقتها.

ليس في شأن الصلاة فحسب بل وفي الصيام فهو يصوم مع هلال رمضان، ويفطر حسب الشهر القمري، وغير هذا كثير، ولنتأمله إذا صلىٰ في أيِّ مكان فإنه يكون ملتزمًا باتجاه الكعبة، وذلك يتطلب منه أن يعرف مكانه علىٰ ظهر الأرض، ويعرف الشمال والجنوب، والشرق والغرب.

وحين يتلو القرآن يجد آياته تأمره بالتأمل في الفضاء الخارجي من حوله وتدعوه إلىٰ التفكر في خلق السماوات والأرض، ثم يجد أن القرآن يذكر كواكب معينة ونجومًا بأسمائها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩﴾ [النجم:٤٩].

ومن هنا كان للإسلام دور عظيم في توجيه العقول المسلمة للاهتمام بعلم الفلك ولم يكن اهتمامًا عاديًّا بل صار إبداعًا أنتج علىٰ مرِّ التاريخ كتبًا واكتشافات واختراعات وبناءات ونظريات خدمت الدنيا سنين عديدة وكان لها الأثر الفعال في تشييد النهضة الحديثة في علم الفلك، وخير شاهد علىٰ فضل علماء المسلمين وإنجازاتهم في علوم الفلك أن

اختارت الهيئة الفلكية العالمية ثمانية عشر عالمًا إسلاميًّا، وقررت وضع أسمائهم علىٰ تضاريس القمر؛ اعترافًا بفضلهم علىٰ أبحاث الفضاء، وفيٰ هبوط الإنسان علىٰ سطح القمر ومن هؤلاء السادة العلماء: إبراهيم الفزاري، محمد الفرغاني، أبو ريحان البيروني، جابر بن حيان، وابن بطوطة الرحالة المشهور، وعمر الخيام الذي قام بأبحاث مهمة في مرصده حول دوران الكواكب حول الشمس(١).

نعم في كل علم من العلوم الموجودة اليوم كان المسلمون الأوائل رواده وواضعي أصوله ومنطلقاته ونظرياتهم موضع تقدير كبير من علماء النهضة الحديثة المعاصرين.

إنَّ أسماء وأقوال علماء المسلمين من روَّاد العلوم المدنية من المشرق والمغرب مدونة كحكم عظمىٰ قائدة ومحفزة في الحث علىٰ العلم والبحث يقرؤها طلاب العلم في قاعات الدرس بجامعات العالم أجمع.

(١) انظر: موسوعة عباقرة الحضارة العلمية في الإسلام، أحمد محمد الشنواني.

ولم يعرف تاريخ الإسلام إهمال هذه العلوم ولا التفريط بها إلا مؤخرًا حين ساد الجهل وعمت فوضىٰ التفكير الخاطئ، ولهذا تخلف المسلمون عن ركب الحضارة والمدنية، وأصبحوا يتسولون العلم والمعرفة من غيرهم.

وليس العيب فيهم من جهة أنهم مسلمون فالإسلام حث علىٰ العلم ورفع من أقدار العلماء، وفتح لهم المجال رحبًا لاكتشاف المعارف وإنتاج العلوم، والقرآن الكريم وحديث النبي ﷺ مليئان بتلك المعاني بل فيهما كثير من الإشارات والتلميحات، وأيضًا التصريحات التي تفتح لنا الطريق إلىٰ علوم لم يعرفها الإنسان إلا بعد ألف عام وزيادة من نزول القرآن وظهور رسالة النبي عليه الصلاة والسلام..

فليس العيب إذن عيب الإسلام، ولكنه عيبنا نحن البشر إذ لم نفهم رسالة ربنا كما ينبغي.

بل نجزم أن في القرآن الكريم والسنة النبويَّة إشارات إلىٰ علوم لم تعرف بعد تنتظر قلبًا طاهرًا وعقلًا ذكيًّا ألمعيًّا وجهودًا عاملة مخلصة لاكتشافها وإبرازها، ويوم توجد هذه الجهود علىٰ هذا النحو ستساعدها الموجودات كلها من

متحرِّك وساكن بل ستعاونها الأرض وترشدها السماء.

وليس هذا ببعيد علىٰ الإنسان فمن جد وجد ومن زرع حصد، فلتجعل التفوُّق في هذا المجال الرائع حلمك، ولتجعل حلمك بالإبداع فيه يومًا حقيقة، بلَّغك الله من الخير ما تتمنَّىٰ.

طبيـــب

الآلام شيء صعب وشاق، يسهر المريض وحده يعاني مرور اللحظات في وحدته وهو يشعر بثقل المرض، خاصة وهو يزداد في الليل، ويتمنىٰ في كلِّ لحظة أن ينتهي الليل ويأتي الصباح حتىٰ يرىٰ الناس وينشغل بهم عن آلامه، وسرعان ما يأتي النهار وينتهي كأنَّه لحظات معدودة فيأتي بعده ليل طويل، وكل يوم يمر عليه علىٰ هذه الحال، فخفف الله علىٰ من لا يجد في ليله ونهاره مؤنسًا، سبحان الله كيف يتحمل، وماذا يفعل؟!

وإذا كان الأصحَّاء يسمَعون أنَّات المرضىٰ وآهاتهم فيتوجَّعون لما يسمعون، خاصة إذا كان المريض والدًا أو ولدًا، فكيف بالمريض وهو من يمزِّق المرض في أجزائه ويقطِّع من أوصاله؟

خفَّف الله عن هؤلاء المرضىٰ جميعًا.

هل بإمكاننا أن نخفِّف شيئًا من آلامهم؟

إن كنا نملك ذلك فإننا لا نتأخر!

والجواب: نعم نملك، إننا جميعًا نملك الدعاء لهم

ليخفف الله عنهم ويرحمهم بكشف البلاء وزوال الأمراض، ونملك أيضًا أن نزورهم فنواسيهم في حالاتهم ونسليهم في أوقاتهم ونحادثهم ما استحبوا الحديث ونكرر هذه الزيارة عليهم ما لم يملوها.

وبعضنا يملك أن يمدَّ لهم يد العون فينفق علىٰ فقيرهم من ماله ليتطبب أو يشتري الدواء، وبعضنا هو ذلك الطبيب الذي يمتلك القدرة علىٰ مداواتهم فليمد يد العون للقادر والفقير فيصدق مع الجميع في تشخيصه وتطبيبه وفي مواعيده ووعوده، ويتصدق علىٰ المحتاج بقيمة كشفه، فإن لم يمكنه فليحضر ساعات عمله الحكومي كاملة وليبذل دقائقها كلها فيما جعلت له حتىٰ يعفي نفسه من المسئولية أمام الله تعالىٰ.

وبعضنا الصيدلاني فليرحم وليتكرَّم في مهنته لي رحم الله ويتكرم عليه، وكلنا إلىٰ رحمة وكرم الله تعالىٰ فقير، لا ريب.

ومن هنا نشأت رغبة الإسلام في تعلم بعض أبنائه الطبَّ ليكون منهم السعي لتخفيف آلام المرضىٰ والمعاونة في رفع معاناة المتألمين.

نجد في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا

﴿تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:٣١] هذه الآية التي جمع الله الطب كله في نصفها: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فهذه الآية هي أساس الطب الوقائي والعلاجي.

وما من مرجع طبي إلا فيه التأكيد علىٰ ضرورة التوسط وعدم الإسراف في تناول الطعام والشراب.

وهكذا عرَّفنا الله تعالىٰ في القرآن بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله:

﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

ثم زاد علىٰ طب الأجساد بطب القلوب وشفاء الصدور.

والمعدة بيت الداء؛ لأنها أول الأعضاء الحيوية والهامة التي تستقبل الطعام، وإجهادها بالطعام والشراب يؤدي إلىٰ التخمة، والرسول ﷺ يوجهنا فيقول: «**ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان**

لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[١].

ويوجهنا الله تعالىٰ إلىٰ النظر في أنفسنا بدنًا وروحًا ويقص علينا شيئًا من أخبارهما حضًّا لنا علىٰ تتبع ما نستطيع منها والتعرف إليه ومن ذلك أمور الأجهزة والأعضاء، في الصحة والمرض، بملاحظة الأمراض والعلل، وما يظهر من أعراضها، ثم التماس طرق الشفاء والتداوي منها.

وعن أنس رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ عزوجل حَيْثُ خَلَقَ الدَّاءَ خَلَقَ الدَّوَاءَ فَتَدَاوَوْا**».

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: قَالَتْ الأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلا نَتَدَاوَىٰ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، إِلا دَاءً وَاحِدًا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «**الْهَرَمُ**»[٢].. يعني ﷺ الضعف بسبب كبر السن وأمراض الشيخوخة، فليس له دواء.

إذن فقد حثَّ الشرع في الكتاب والسنَّة علىٰ الطب

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي (٢٣٨٠)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وصححه الألباني.

والعلاج، وقد استجاب المسلمون الأوائل لدعوة القرآن والسنة لتعلم الطب فتعلموه وأتقنوه بل صاروا أهل خبرة ودراية عظيمة فيه وأسهموا كثيرًا في صناعته واكتشاف حلقاته وتطويره.

ويُعدُّ علم الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان لعلماء المسلمين فيها إسهامات بارزة علىٰ مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات علىٰ نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار؛ حتىٰ ليُخيَّل للمطَّلع علىٰ هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين!

ولم يقتصر الإبداع علىٰ علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلىٰ تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة علىٰ كافَّة جوانب الممارسة الطبيَّة وقايةً وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وإن روعة الإسهامات الإسلامية في الطبِّ لتتجلَّىٰ في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطِّبِّيَّة النادرة، التي كان

لها -بَعْدَ الله تعالىٰ- الفضل الكبير في تحويل مسار الطبِّ إلىٰ اتجاه آخر، تابعت المسير علىٰ نهجه أجيالُ الأطباء إلىٰ يوم الناس هذا.

وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أنَّ الإنسان منذ وُجِدَ علىٰ ظهر الأرض وهو يهتدي -بإلهام ربِّه- إلىٰ أنواع من التطبيب تتَّفِق مع مستواه العقلي وتطوُّره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطبِّ يُعرف بالطبِّ (**البدائي**) انسجامًا مع المستوىٰ الحضاري للإنسان.

ولذلك نجد ابن خلدون يذكر أن: (... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر علىٰ تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحيِّ، وربما صحَّ منه شيء، ولكنه ليس علىٰ قانون طبيعي).

ولما جاء الإسلام كان للعرب في الجاهلية مثل هذا الطب، فحثَّ رسول الله ﷺ علىٰ التداوي فقال كما روىٰ أسامة بن شريك رضي الله عنه: «**تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ تعالىٰ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ**»(١).

(١) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وصححه الألباني.

وعُرف عن رسول الله ﷺ التداوي بالعسل، والتمر، والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـ (**الطب النبوي**).

ومن كتب العلامة ابن القيم: كتاب (**الطب النبوي**) ذكر فيه فوائد كثيرة، ومنافع ومسائل علمية نادرة، وأثبت خلاله أنَّ من هَدْيِ النبي ﷺ فعلُ التداوي في نفسه، والأمرُ به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، وذكر فيه الأدوية التي عرفت في وصاياه وأحاديثه ﷺ.

غير أن علماء المسلمين لم يَقِفُوا عند حدود ذلك الطبِّ النبوي، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية -والطبُّ أحدها- تحتاج إلىٰ دوام البحث والنظر، والوقوف علىٰ ما عند الأمم الأخرىٰ منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عن الحكمة أنَّىٰ وُجدت..

فنرىٰ أطباء المسلمين يأخذون في التَّعَرُّفِ علىٰ الطبِّ اليوناني من خلال البلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدأوا يستقدمون الأطباءَ الروم، الذين سرعان ما أخذ عنهم الأطباءُ المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت

أيديهم من مؤلَّفات طبية، ولعلَّ هذا يُعْتَبَرُ من أعظم أحداث العصر الأموي.

وقد تميَّز علماء الطبِّ المسلمين بأنهم أوَّل مَنْ عَرَفَ التخصُّص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويُسمَّون (**الكحَّالين**)، ومنهم الجراحون، والفاصدون (**الحجَّامون**)، ومنهم المختصُّون في أمراض النساء، وهكذا.

وكان من هؤلاء وهؤلاء عباقرة بارعون هم روَّاد الطب في عصورهم وأساس البنيان في النهضة الحديثة، ومن عباقرة علماء المسلمين في الطب:

أبو بكر الرازي، والذي يُعْتَبَرُ من أعظم علماء الطبِّ في التاريخ قاطبةً، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه!

وعلي بن عيسىٰ الكحال، وكان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطىٰ برُمَّتِهَا، ومؤلَّفه (**التذكرة**) أعظم مؤلَّفَاته.

وأبو القاسم الزهراوي، أعظم الجرَّاحين في التاريخ، تمكَّن من اختراع أُولَىٰ أدوات الجراحة كالمشرط والمقصِّ الجراحي، كما وَضَع الأُسُسَ والقوانين للجراحة.

وقد كان الزهراوي هو الواضع الأوَّل لعلم (**المناظير الجراحية**) وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلىٰ جانب أنه أوَّل مخترع ومستخدم لمنظار المهبل، ويُعْتَبَرُ كتابه (**التصريف لمن عجز عن التأليف**)، والذي قام بترجمته إلىٰ اللاتينية العالم الإيطالي جيراردو تحت اسم (ALTASRIF)، موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوروبا، وهذا باعترافهم.

وابن سينا، الذي اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتىٰ الآن، مثل طُفَيْل (**الإنكلستوما**)، وأوَّل من وصف الالتهاب السحائي، وأوَّل من فرَّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ، والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقرَّ عليه أساطين الطبِّ اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أوَّل من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي، وأوَّل من أرسىٰ (**علم الطفيليات**) الذي يحتلُّ مرتبة عالية في الطبِّ الحديث.

ولم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في

مجال الطبِّ، فقد حفل سجلُّ الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الروَّاد الذين تتلمذتْ عليهم البشرية قرونًا طويلة.

وكان تعلُّم الطبِّ ومعاناة التطبيب مكفولين لأيٍّ كان ذكرًا أو أنثىٰ، مبصرًا أو مكفوفًا، فهذه رفيدة الأسلمية من صحابة النبي ﷺ قد اتَّخذت خيمةً في مسجد النبيِّ ﷺ وكانت تُداوي الجرحىٰ.

وكانت زينب طبيبة بني أَوْد من الماهرات في صناعة الكحالة، عالمة بصناعة الطب والمداواة، ولها خبرةٌ جيِّدةٌ بمداواة آلام العين والجراحات، مشهورةٌ بين العرب بذلك.

وكانت أخت الحفيد أبي بكر ابن زهر الحفيد وبنتها عالمتين بصناعة الطبِّ، ولها خبرةٌ جيِّدةٌ فيما يتعلَّق بمداواة النساء.

وكانت أمُّ الحسن بنت القاضي أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم أبي جعفر الطنجالي من أهل لوشة -بلدة بالأندلس- تُجوِّد القرآن، وتُشارك في فنونٍ من الطب، وأفراد

مسائل الطب، وتنظم الشعر(١).

وهكذا برع المسلمون الأوائل في صناعة الطب وينتظر أن يكون أحفادهم علىٰ طريقهم حين يجمعون إلىٰ الإسلام إعمار الأرض، وحين يحملون الخير للناس، بيمناهم كتاب الله فيه مشاعل النور يضيئون بها الطريق للسالكين وبيسراهم تقدم ونهضة وحضارة ترغم أهل الأرض علىٰ التأسي بهم وتعلم لغتهم والتعرف علىٰ ثقافاتهم وتقليد أخلاقهم وسلوكهم، وليس هذا ببعيد ولا غريب ولا مستحيل، فقد كنا يومًا وكانوا كذلك، وسنعود إلىٰ مكانتنا تلك بمشيئة الله تعالىٰ.

فإن حلمت يومًا أن تكون طبيبًا وأرجو من الله أن يحقق حلمك فاحرص علىٰ أن تكون:

- إنسانًا، تشعر بالناس وتحس بهم وتعاملهم بقلبك لا بعقلك فقط.

- رؤوفًا، تشارك المريض همه وتستمع لشكواه بعناية وتعاونه علىٰ الخروج منها سالما بحب منك وتقدير لحالته.

(١) انظر: موسوعة عباقرة الحضارة العلمية في الإسلام، أحمد محمد الشنواني.

- محسنًا، فتترفق بمن كانت حاله لا تسمح بدفع أجرك وحق عيادته عندك وتعفو عن من بدا لك من حاله الفقر والمسكنة.

- أمينًا، لا تغش مرضاك لصالح شركة أدوية، ولا صاحب صيدلية، ولا لمصلحة غيرهما، ولا تطل عليه لأجل مصلحة لك أو منفعة ولا تحيله علىٰ جهة تعلم أنه ليس له فيها نفع ولا من ورائها له عائد أو تعلم أن غيرها أولىٰ به أو أرفق.

- عدلًا، توفق بالحق بين عيادتك الخاصة وجمهورها وبين مناوبتك الحكومية وروادها، فلا تطغىٰ إحداهما علىٰ الأخرىٰ ولا ينتقص من حق الثانية للأولىٰ.

- منصفًا، تلتزم تخصصك وتحيل غيره علىٰ أهله، وما بدا لك أنه أكبر من علمك وفوق خبرتك فلا تستح أن تعتذر عنه وأن تدل علىٰ من هو فوقك في العلم والخبرة ولا تتحرج من قول لا أعرف ففوق كل ذي علم عليم.

ولا تظلم، ولا تغش، ولا تخن، ولا تغدر، ولا تبع ضميرك بأي ثمن!

فإن يوفقك الله إلىٰ القيام بما أوصيتك به تسعد، ويحبك الله، ويحبك الناس، وتفوز في الدنيا والآخرة.

وفي النهاية: اقرأ كتاب **(من روائع حضارتنا)** يحدثك عن روائع من تاريخ هذه المهنة العظيمة وغيرها من المهام الجليلة حتىٰ تضيف إليها من مستقبلك شيئًا جديدًا رائعًا، وإنا لمنتظرون.

داعيـــة

الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ عملٌ عظيمٌ ووظيفة جليلة ورسالة قيمة في الحياة، ويكفيها شرفًا وفضلًا أنها وظيفة الرسل والأنبياء، وليس فوق ذلك منزلة أو مكانة.

ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. يعني لا يوجد أحد أحسن قولًا ممن قال: ربنا الله، ثم استقام علىٰ الإيمان به، والانتهاء إلىٰ أمره ونهيه، ودعا عباد الله إلىٰ ما قال وعمل به.

وإنما كان الداعية إلىٰ الله بهذه المكانة وذلك الفضل لأن بسببه يهتدي الضالُّ، ويتوب العاصي، ويتذكَّر الغافل، ويبقىٰ الخير والمعروف في النَّاس، فالداعية حبيب الله، وليُّ الله، صفوة الله، خيرة الله، وأحبُّ الخلق إلىٰ الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله، وكل من اشتغل بالدعوة له نصيب من هذا الفضل، بقدر ما يعطيها من وقته وجهده وفكره.

إنها وظيفة الأنبياء والرسل أفضل الخلق علىٰ الإطلاق، ووظيفة السائرين علىٰ طريقهم كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فأتباع الأنبياء يسلكون علىٰ طريقهم يدعون إلىٰ ما دعوا إليه.

والدعوة إلىٰ تعالىٰ مجالٌ كبيرٌ يشمل الخطابة، والوعظ، وتعليم العلم، وتربية أبناء المسلمين وتأديبهم، وتحفيظهم القرآن، وتأليف الرسائل والكتب التي ترشد الخلق إلىٰ أمور دينهم، ودلالة الناس علىٰ الخير بتعريفهم بما يحبه الله ويرضاه ونهيهم عما يكرهه ويبغضه.

إلا أنَّ الغالب علىٰ إطلاق الدعوة إلىٰ الله في واقعنا هذه الأيام يكون علىٰ المعنىٰ الأول وهو القيام بالخطابة والوعظ، عن طريق المنبر والدروس في المساجد وأماكن تجمُّع الناس.

وقد اشتغل كثيرٌ من العلماء في عصرنا الحاضر بوظيفة الداعية تلك بهذا المعنىٰ وبرعوا فيها وتركوا أثرًا عظيمًا يقتدي به من بعدهم.

ومن أبرز هؤلاء الدعاة الأعلام فضيلة الشيخ

عبد الحميد كشك رَحِمَهُ اللَّهُ: العالم المصريُّ الشهير، الذي طبَّقت شهرته بلادَ الإسلام الواسعة.

كان الشيخ عبد الحميد كشك من خيرة الدعاة الذين عرفهم العصر الحديث، نشأ في أسرة فقيرة من ريف مصر، لكن ذلك لم يحل بينه وبين التفوِّق، فقد ظل يتنقل بين سنوات الدراسة متقدمًا علىٰ جميع زملائه، حائزًا المركز الأول، حتىٰ تخرج في كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر، بتقدير امتياز، وكان الأول علىٰ دفعته، ومثَّل الأزهر الشريف في عيد العلم عام ١٩٦١م.

لم يمنع الشيخَ فقرُه أن يتفوَّق علىٰ جميع أقرانه إذن، وكان إلىٰ جانب هذا كفيفَ البصر لا يرىٰ، وقد طرأ العمىٰ عليه كبيرًا، فقد كان مبصراً إلىٰ أن بلغ سنُّه الثالثة عشرة فأصيب برمد صديدي في عينيه وفقد إحداهما، وفي سن السابعة عشرة فقد العين الأخرىٰ، وبها فقد بصره تمامًا.

لكنه كان صابرًا محتسبًا، وكان كثيراً ما يتمثَّل ببيت من الشعر قاله الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين عمي وهو كبير:

إن يأخـــذِ الله مـــن عَيْنـــيَّ نورَهمـــا

ففـــي فـــؤادِي وعقلِـــي عنهمـــا نـــورُ(١)

حين تخرج الشيخ عُين معيداً بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة، ولكنه لم يقم إلا بإعطاء محاضرة واحدة للطلاب، بعدها رغب عن مهنة التدريس في الجامعة، حيث كانت روحه معلقة بالمنابر التي كان يرتقيها منذ الثانية عشرة من عمره، ولم ينس تلك الخطبة التي ارتقىٰ فيها منبر المسجد في قريته في هذه السنِّ الصغيرة عندما تغيب خطيب المسجد، وكيف كان شجاعًا فوق مستوىٰ عمره الصغير، وكيف طالبَ بالمساواة والتراحم بين الناس، بل وكيف طالب بالدواء والكساء لأبناء القرية، الأمر الذي أثار انتباه الناس إليه والتفافهم حوله.

عُيِّن فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك في وزارة الأوقاف إماماً وخطيباً فعمل بمساجد عدة، ثم في عام ١٩٦٢م تولىٰ الإمامة والخطابة بمسجد عين الحياة، بشارع مصر والسودان بمنطقة حدائق القبة بالقاهرة، ذلك المسجد الذي ظلَّ الشيخ

(١) كتاب الحيوان، الجاحظ، باب شعر في الخصب والجدب: (١/ ٢١٦).

يخطب فيه قرابة عشرين عامًا، وشهد هذا المسجدُ صولات الفارس وجولاته، بل شهدت مصر ومن ورائها العالم العربي فالإسلامي داعيةً قلَّ أن يجود الزمان بمثله.

في خطبه ودروسه: فقد كان الشيخ كشك: عالمًا وداعية كبيرًا، فارسًا حقيقيًّا من فرسان المنابر، وكان محاميًّا بارعًا في الدفاع عن قضايا الإسلام، ورائدًا عظيمًا من روَّاد الحركة الإسلامية، وهو من أشهر خطباء القرن العشرين في العالم العربي والإسلامي، وله أكثر من ٢٠٠٠ خطبة ودرس مسجل، وقد مارس الشيخ الكريم الخطابة والتدريس مدة أربعين سنة، ومن المعجب أنه لم يؤثر عنه خلال هذه المدة خطأٌ واحدٌ في اللغة العربيَّة!

ولقد كان يحضر الصلاة معه حشودٌ هائلة من المصلين تصلي في المسجد والشوارع المحيطة به؛ إذ لم يكن الشيخ في مسجده يقوم بعمله علىٰ أنَّه موظف، وإنما كان يعتبر عمله رسالة قبل أن يكون وظيفة، ودعوة قبل أن يكون مورد رزق يتكسَّب منه، ومن ثم استطاع الشيخ أن يجعل من مسجده داراً للعبادة، ومدرسة للتعليم، ومعهداً للتربية، ومأوىٰ للمحتاجين والمساكين، وسوطًا لتأديب الخارجين، حتىٰ قال عنه (جيلز

كيبل) رجل المخابرات الفرنسي: نجح كشك في إعادة رسالة المسجد في الإسلام، حيث تحوَّل مسجده إلىٰ خليَّة نحل تكتظ بحشود المصلين.

- **في جهره بكلمة الحق**: فالشيخ عبد الحميد كشك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الصادعين بكلمة الحق ولا يخشىٰ في سبيلها لومة لائم، وكان في خطبه ودروسه وحواراته دائمًا يستعرض صور الفساد في مصر من الناحية الاجتماعية والفنية والحياة العامة وينتقدها وينادي بإزالتها، ولم يكن له في ذلك سقف محدد من وزير أو رئيس وزراء أو رئيس، فكان ينتقد الجميع كُلًّا فيما يخصُّه وبما يدينه، ولهذا سخط عليه الحكَّام وأُلقيَ عليه القبضُ كثيرًا من قبل الأمن مرات عديدة، وحين أُفرج عنه في المرة الأخيرة عام ١٩٨٢م، مُنع من الخطابة والوعظ، ولم يعد إلىٰ مسجده، وبقي إلىٰ أن لقي ربه ممنوعًا من إلقاء الكلمات في الجماهير، وقد تركت بعض هذه الاعتقالات آثارها في جسده من صنوف التعذيب وألوان الإهانات.

- **في التضحية بنفسه وراحته في سبيل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ**: فقد دعا الشيخ إلىٰ سبيل ربِّه عَزَّوَجَلَّ بوسائل عديدة،

شملت الخطبة المنبرية والدرس الوعظي وبعض الدروس المتخصصة في التفسير وغيره وتأليف الكتب وكتابة المقالات في الصحف والمجلات وغير هذا من الوسائل، ولم يكن يهدأ له بال حتىٰ يصل بكلمة الله إلىٰ كلِّ مكان يمكنه الوصول إليه، ولم يركن إلىٰ الراحة بسبب من الاضطهاد أو التضييق أو فقد البصر وغير هذا، فكان نعم المثال للداعية المضحِّي في سبيل الله براحته.

- **في كتاباته ومؤلفاته**: ترك الداعية الكبير الراحل (١١٥) كتابًا تناول فيها كافة مناهج العمل والتربية الإسلامية، وكان في كل هذه الكتابات ميسراً لعلوم القرآن والسنة، مراعيًا لمصالح الناس وفِقهِ واقعهم بذكاء وعمق وبصيرة، كما تُوِّجت جهوده العلمية بمؤلَّفه الضخم في تفسير القرآن الكريم الذي ضمَّته عشرة مجلدات، وسماه: (**في رحاب التفسير**)، قام فيه بتفسير القرآن الكريم كاملاً، وهو أول تفسير يعرض للجوانب الدعوية في القرآن الكريم، وهو يُمثل ضلعًا ثالثًا إلىٰ جانب (**في ظلال القرآن**) للشهيد سيد قطب، و(**الأساس في التفسير**) لسعيد حوىٰ رحمهما الله ورحمه.

لقد أبدع الشيخ عبد الحميد كشك في كلِّ ما تصدَّىٰ له

من مهام وما استعمله من وسائل، ونجح نجاحًا ملحوظًا حتىٰ كان قدوةً طيبةً لطبقةٍ كبيرةٍ وأجيالٍ كثيرةٍ من الدعاة الذين عاشوا في زمانه وبعده إلىٰ يومنا هذا.

ومن أسباب نجاح الشيخ كشك في أداء رسالته كداعية وشهرته:

عدم تقليده لأحد من الناس بل كان مدرسة مستقلة بذاتها.

بلاغة أسلوبه وقوة لغته وإتقانه للفصحىٰ ومن ذلك استشهاده بروائع الشعر وظريفه، وجميل القصص، وبديع الأمثال.

قدرته علىٰ إيصال أسلوبه للناس علىٰ اختلاف ثقافتهم ومعارفهم ولهجتهم، ومن ذلك تنزُّله لجذب عوام الناس والترويح عن عموم جمهوره بكلماته الساخرة وعباراته الطريفة ولطف دعابته ولواذع سخريته، وإنك لتسمع خطبته مرات ومرات فتظل كأنك ولأول مرة تسمعها.

زهده في الدنيا وبعده عن مغرياتها المختلفة مما حبب الكثيرين فيه.

صبره وثباته في المحنة، وشجاعته في قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

امتاز الشيخ: بأسلوبه الأخاذ الذي يخاطب العقل كما يخاطب الوجدان ويحرك العاطفة كما يحرك الشعور والإحساس، يأسر القلوب إذا خطب، ويلهب المشاعر إذا تحدث، ويحرك الدموع إذا خوَّف وأنذر، ويضحك الأسارير إذا علق وسخر.

وقد رفض الشيخ عبد الحميد الرحيلَ من مصر رغم العروض والإغراءات التي انهالت عليه من كل مكان، وكان يقول: إنَّ فرار العلماء من مصر خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخها كالتولي يوم الزحف؛ لأن مصر هي قلب العالم الإسلامي وإذا مات القلب مات الجسد كلُّه.

وإذا أردنا أن نضع مفاتيح لشخصية الداعية الكبير الراحل الشيخ عبد الحمد كشك فإننا نرىٰ أنها تتلخص في أربعة أمور:

أولاً: الإخلاص العميق في كل علم وعمل.

ثانيًا: الصدق والثبات والشجاعة إلىٰ أقصىٰ حد.

ثالثًا: الذكاء الحاد وخفة الظل التي قرَّبت مفاهيم الدعوة للناس

رابعًا: المواهب الشخصية التي حباه الله تعالىٰ بها كالذاكرة الذهبية واللباقة والفصاحة التي لا مثيل لها.

بهذه المفاتيح فتح الشيخ عبد الحميد كشك: الباب إلىٰ المستقبل وحقق أهدافه من خلال وسائل عدة وقدر أن يقوم بمهمته، حتىٰ وافته المنيَّة وهو ثابت علىٰ مبدئه لم يتخل عنه.

وكانت أحداث وفاته شاهدة علىٰ مكانته العظيمة كما شهدت بها أحداث حياته فقد توفي الشيخ يوم الجمعة، وهو يصلي ركعتي الوضوء في بيته قبل أن ينزل إلىٰ المسجد، وكان قبل الصلاة قد قصَّ علىٰ زوجته وأولاده رؤيا جميلة رأىٰ الشيخ فيها رسول الله ﷺ ومعه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسلم عليهما، ثم وقع علىٰ الأرض ميتًا، فغسله رسول الله ﷺ بيديه الشريفتين.

وحينما سمعت زوجته ذلك منه قالت له -وهي التي قصَّت هذه الرؤيا-: علمتنا حديث النبي ﷺ أنه من رأىٰ رؤيا يكرهها فلا يقصصها علىٰ أحد.

فقال الشيخ كشك: ومن قال لكِ إنني أكره هذه الرؤيا، والله إني لأرجو أن يكون الأمر كما كان، ثم ذهب وتوضأ في بيته لصلاة الجمعة، وكعادته بدأ يتنفل بركعات قبل الذهاب إلىٰ المسجد، فدخل الصلاة وصلىٰ الركعة الأولىٰ، وفي الركعة الثانية سجد السجدة الأولىٰ ورفع منها ثم سجد السجدة الثانية وفيها تُوفي.

وذلك يوم الجمعة، الخامس والعشرين، من شهر رجب، لعام ١٤١٧هـ، الموافق ٦ ديسمبر ١٩٩٦م، وكان في ذلك تحقيق أمل الشيخ ورجائه فقد كان: يدعو كثيرًا أن يتوفَّاه الله ساجدًا، فكان له ما أراد، لقد جمع الشيخ عبدالحميد كشك: بين الفقه والدعوة، والأكاديمية والمنبر، والفصحىٰ والوعظ، والدين والحياة، والعلم والعمل فاستحق أن يكون بحق إمام الدعاة في العصر الحديث.

رحم الله الشيخ الجليل وغفر له ورزق علماءنا السير علىٰ منهاجه.

وإنَّه لمثال وقدوة علىٰ طريق الدعاة ينبغي أن يتأسوا بها، فإن حلمت أن تكون من الدعاة إلىٰ الله علىٰ طريق الحق،

كهذا العالم الجليل، فاحرص على:

أن تتقن العلم الشرعيَّ كامل الإتقان، وتكثر من القراءة والاطلاع، وتلتحق بكليَّة متخصصة في الدعوة إلى الله تعالى.

أن تسير في هذا الطريق مقتديًا برسول الله ﷺ والسائرين على طريقه بإحسان، إخلاصًا وعملًا.

أن لا تخالف أعمالُك وأخلاقُك أقوالَك، فيُصدُّ النَّاسُ عن الحق بسببك وقد يضلُّ بعضهم لذلك فتتحمَّل أوزاره.

أن تجعل الدعوة رسالة لا وظيفة، وابذل لها أثمن وقتك وغاية جهدك ومبلغ مساعيك ولا تبخل عليها بشيء.

أن تجعل لدعوتك غاية وأهدافًا وتجعل وقتك على مراحل وخطوات، وضع لنفسك منهجًا يلائم الأهداف والمراحل، فتستطيع أن تنجز هدفًا هدفًا في مرحلة مرحلة.

أن تدرس طبائع وعادات وتقاليد وثقافة مدعوِّيك وتدرس الأساليب المناسبة لدعوتهم وتخاطبهم بها.

أن تكون رفيقًا في غير مداهنة، هادئًا في غير كسل، لينًا في غير ضعف، وأن تأخذ الناس بالحسنى والصبر، ضابطًا

لحماسك بإخلاصك ولشجاعتك بحكمتك.

أن تطوِّر من نفسك باستمرار علمًا ووسائل، وتبدع في تقرير رسالتك وتبليغها.

أن تؤدي رسالتك وتقوم بها خير قيام، ولا تقصر في شيء منها، تقديرًا للدعوة التي تحملها والأفاضل من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الذين تنتمي إليهم.

أن تكون شجاعًا في قول الحق، مقدامًا في تقرير المعروف والنهي عن المنكر، جريئًا في مجابهة الظالمين وكشف المفسدين، كائنة ما كانت مناصبهم.

مفكِّـــر

التفكير فريضة إسلامية كفريضة الصلاة والصيام والحج، فقد أمر الله تبارك وتعالىٰ بالتفكير، وحث عليه، وألزم المسلم بضرورة تفعيل الفكر في كل جزئيات حياته الدينية والدنيوية، وعاب الله سبحانه وتعالىٰ على الذين لا يُعملون عقولهم عيبًا قويًّا ولامهم لومًا شديدًا.

لقد جعل الله التفكير فريضة إسلامية فقال سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران ١٩٠].

وأولو الألباب هم العقلاء حقًّا، وقد طالبهم الله تعالىٰ أن يتفكروا في خلق السماوات والأرض تفكر علم وبحث ودراية واستكشاف وتقصٍّ.

ويكثر أن نقرأ في القرآن الكريم:

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

والاسلام يرفض أن يحيل الإنسان أعذاره علىٰ آبائه

وأجداده كما يأبىٰ له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

إنَّ الإسلام يحرِّر العقل من سيطرة الأوهام والخرافات ويطلقه من قيود الأعراف والعادات الموروثة لينظر فيها ما كان منها صوابًا يحتفظ به وما كان خطأً يتركه ويذهب، وفي هذا غاية الاحترام والتقدير له.

وينعىٰ الإسلام علىٰ الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة العقل؛ لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها، فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

بل علىٰ المرء أن يتدبَّر ما هو فيه وما حوله من أقوال وأفعال فيأخذ بأحسنها وخيرها ويدع السيئ الخبيث، ولا يمسك نفسه علىٰ ما لا يظهر نفعه ولا ما يكون ضرُّه أقرب من نفعه.

إنَّ صفحة الإسلام صفحة بيضاء صافية نقية ليس فيها

ما يخشاه من تفكير المؤمنين به أو غير المؤمنين، فليفكروا في تصوراته وعقائده وليفكروا في نظمه وأحكامه وليفكروا في سلوكياته وأخلاقه، وليقارنوها بغيرها من أنظمة الدنيا لمن كان معهم كتاب من الناس إليه يحتكمون ولمن كان لديهم عقل به يفكرون.

والنتيجة الحتمية التي ستخرج بها هذه العقول في النهاية هي أن تعاليم الإسلام تتفوق علىٰ كل التعاليم في كل مجال، وليس فيها أمر يشين أو يعاب، وليس فيه ما يُستحىٰ منه ويُخجل.

وينبغي التفكير في تعاليم الإسلام كذلك حتىٰ نكون علىٰ بينة من أن هذه التعاليم نافعة وفيها خيرنا ومصلحتنا، ولنكون علىٰ يقين من علوها علىٰ أنظمة البشر، ونثق بحكمة منزلها، وأنها من عند الله وليست من عند أحد من الناس، وإذا كان جميع الناس مطالبون بالتفكر والتدبر والتعقل فإنهم لا ريب متفاوتون في ذلك تفاوتًا كبيرًا، وأعظم هؤلاء من جعل التفكر دأبه وعادته واتخذه سبيله للوصول إلىٰ حقائق الأشياء وتفسيراتها، يوضحون من خلاله للناس النور، ويوجهونهم

إليه، ويكشفون لهم زيف ما يشبه عليهم مما سواه، وهؤلاء هم أهل الفكر في الإسلام، فبين إحقاق الحق بإقامة الأدلة علىٰ صوابه، وإزهاق الباطل بتفنيد شبهه؛ يدور عملهم وعلمهم وجهودهم.

ومهمة أهل الفكر في الإسلام هي الحكم علىٰ الواقع من وجهة نظر الإسلام، وتوفير منهج يفكر به المسلمون ويحكمون به علىٰ الأشياء من حولهم يكون مستنبطًا من القرآن ومن سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، ويوافق العصر الذي يعيشه هؤلاء المفكرون.

فالمفكر المسلم يعيش في واقع مليء بالمشكلات ويحتاج إلىٰ حلول لها من الدين، ويعيش ظروفًا غير الظروف التي نزلت فيها أحكام الإسلام فيوفق بينها وبين تلك الأحكام، ويُعَبِّدون الناس لرب الناس، وما يكون من عقبات في هذه البيئات الجديدة يذللونها من الإسلام، ويزيلون الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام علىٰ تعاليمه والعوائق التي تعترض طريق غير المسلمين للدخول في الإسلام والإيمان به.

وقد نبغ في العصر الحديث مفكِّرون إسلاميُّون كثير، من

الرجال والنساء جميعًا، ومن أولئك نستعرض سيرة رجل وامرأة عظيمين قدَّما تقريرات للحق عظيمة وإبطالًا للمظاهر الخداعة وأعادوا للإسلام بريقه وأماتوا النظرة الانهزاميَّة لدىٰ المسلمين تجاه دينهم وحموهم من الانبطاح أمام عدوهم، فنرىٰ كيف اهتموا بفهم القرآن الكريم والسنة النبوية وعالجوا مسائل الواقع الذي عاشوا فيه، وقدموا الحلول لمشكلاته من خلال الإسلام.

أما الرجل فهو جمال الدين الأفغاني، وأما المرأة فهي مريم جميلة.

هل سمعت باسم هذين المفكرين من قبل؟

أما جمال الدين فهو أحد أكبر المفكِّرين الذين عاشوا خلال القرن الماضي، ودعا إلىٰ إصلاح حال الأمة الإسلامية، وقد اتسع تأثير دعوته في الفكر الإسلامي ليشمل العالم الإسلامي كله من أوله إلىٰ آخره.

وفي أوساط امتلأت بالركود والضعف والوهن، وهيمنة الغرب علىٰ العالم الإسلامي في كل مناحي العقل والحياة في السياسة والفكر، وفي الاقتصاد والاجتماع، وفي الثقافة والعلم،

وفي كل مناحي الحياة كان شبح الغرب يسيطر علىٰ أبناء الإسلام، فكان جمال الدين من العاملين المخلصين الذين جاهدوا ضد الظلم والظلمات، حتىٰ انقشع بعض كابوسه المقيت وتسرب بعض شعاع من نور الحق إلىٰ عقول فئات من المسلمين، فبدأت هي الأخرىٰ بالاجتهاد في ذات الطريق للخروج بالعالم الإسلامي من هذا النفق المظلم والمسار الخانق، فمن هو جمال الدين؟

ولد جمال الدين في أفغانستان أحد دول قارة آسيا وهو من أسرة عريقة ينتهي نسبها إلىٰ آل البيت الأطهار، وقد تعلم جمال الدين اللغتين الفارسية والعربية في بلاده، وأكمل تعليمه في الهند، وظل طوال حياته حريصًا علىٰ العلم والتعلم حتىٰ إنه تعلم اللغة الفرنسية في آخر حياته.

لقد شغف جمال الدين بتحصيل العلم ولم يعرف التوقف عن طلبه في مراحل عمره المختلفة مؤمنًا بأن العلم لا عمر له ولا نهاية لطلبه ولا نفاد لمدده.

وقد عني والد جمال الدين بتنشئته تنشئة سليمة وتربيته تربية حسنه وساعدته شخصية جمال الدين التي تتمتع بذكاء

فطري وصفاء روحي علىٰ تحصيل علوم كثيرة شملت علوم العربية وعلوم الشريعة وعلومًا عقلية كالمنطق والفلسفة والعلوم رياضية ونظريات الطب والتشريح، لقد طلب جمال الدين العلم علىٰ طريقة الأولين وبرع في جميعها، فنال من كل واحد منها نصيبًا.

وكان جمال الدين حين تفتحت مداركه واستوعب عقله حال أمته قد عرف هدفه وبدأ يُهيِّئ نفسه لهذا الهدف، ولهذا لم يُضيِّع فرصة من جهده أو وقته ليتعلم كل ما يُفيده في مهمته التي نذر نفسه لها، مهمة الإصلاح الكبير الذي سيدوِّي صداه في أرجاء الدنيا، وهذا ما جعله يتنقل في سنٍّ صغيرة بين أفغانستان والهند وبلاد الحرمين يطلب العلم علىٰ أيدي العلماء ويتعرَّف علىٰ أحوال البلاد الإسلاميَّة، وهكذا يرسم الإنسان الواعي مستقبله ويتطلَّع إلىٰ غده ويسجل أحلامه وآماله ويحدد أهدافه ثم يبدأ في الاستعداد لها والتهيؤ بالأسباب والعوامل الموصِّلة إليها، حتىٰ يكون ناجحًا ومؤثرًا، ويخدم دينه ووطنه وأهله ونفسه.

واستقر به الحال مدة في مصر واتصل أثناء ذلك بشيوخ

الأزهر وعلمائه وكانت له في مصر جهود عظيمة، وعرف فيها حتىٰ صار كعبة طلاب العلم فيها، وكان بيته مزارًا للدارسين خلال المدة التي أقامها فيها، قبل أن يرحل مرة ثانية إلىٰ الأستانة عاصمة الخلافة الإسلاميَّة يومئذ بعدما شعر العرش المصري بخطورته فلفق له تُهمًا وأمره بالرحيل.

وهذا حال العروش والجالسين عليها والمحيطين والمنتفعين من خلالهم في كل زمان ومكان يخشون أهل الفكر، يحبون من لا يفكر ويقربونه ويبعدون من أعمل عقله ويؤذونه!!

وفي الأستانة عظم أمر جمال الدين وذاعت شهرته، وارتفعت منزلته، ودعا الناس إلىٰ إصلاح حال الأمة الإسلاميَّة، وحدثهم بآرائه التجديديَّة وانتقد خمول العالم الإسلامي وكسل الفكر فيه، فلقيت دعوته بضرورة التعجيل بالإصلاح صدًىٰ طيبًا لدىٰ العثمانيين، وبدأوا بالفعل في اتخاذ خطوات إصلاحية لتحسين أوضاع الدولة العثمانية الكبيرة لولا أنه لقي معارضة وهجومًا من بعض العلماء وخطباء المساجد الذين لم يرقهم كثير من آرائه وأقواله، فقرر مع هذا الوضع الجديد السفر، وكانت وجهته في هذا الوقت إلىٰ مصر.

وهكذا نرىٰ جمال الدين يؤثر مصر كلما سنحت له فرصة للقدوم إليها والعمل فيها وهكذا شأن جميع المفكرين والمؤثرين فإن مصر هي قلب العالم الإسلامي وقلب جميع العالم من ورائه، وتأثيرها سريع وعميق وكبير في غيرها حتىٰ ليشبه الأمر أنها إذا قامت قام العالم وإذا ماتت مات العالم، تشهد بذلك صفحات التاريخ وخط سير الزمن.

عاد جمال الدين إلىٰ مصر، فالتف حوله الطلاب من جديد، وأكرمه أهلها، ولهذا بقي فيها ولم يغادرها، وظل علىٰ حاله كما هو في كل بلد يزورها، يتحدث في الإصلاح وينتقد الظلم والجور، ويجهر بكلمة الحق، ويصيح لإخراج المسلمين من ظلمات الجهل وينبههم إلىٰ ضرورة اليقظة لما يريده بهم أعداؤهم، ولشدة إخلاصه ووضوح آرائه وصراحة أفكاره وجدة نظريَّاته التفَّ النَّاس حوله واحتفوا بمجالسه احتفاءً كبيرًا، ولم يثنه عن الاستمرار في ذلك سعي الوشاة به وحسد الحساد له.

كانت مصر في هذه الآونة تحت الاحتلال الإنجليزي وكان الحكم فيها ملكيًّا؛ يرث عرش الملك بعد وفاته أحدُ أبنائه، كلما مات والد ورثه ابنه، كما أن الحكم حينئذ كان

حكمًا استبداديًّا لا مجال فيه للحرية أو الشورىٰ، ولم يكن الملِك هو الذي يحكم أيضًا بل كان الحكم للإنجليز علىٰ الحقيقة وما الملوك إلا صور علىٰ العرش فقط!

وكان جمال الدين يدعو إلىٰ ضرورة تنظيم الحكم وألا يكون وراثيًّا، ويجهر في خطبه ودروسه ومقالاته الصحفيَّة بمعاداة الإنجليز، وقد أسخط ذلك عليه حكام مصر الحقيقيين والصوريين، ولأجل هذا سعوا في مضايقته وإخراجه من مصر، فخرج منها بعد ثماني سنوات من الإقامة بها بذل خلالها جهدًا عظيمًا في الإصلاح وإيقاظ الشعوب وتعليم النَّاس قيم الخير والحرية والإصلاح والجهر بالحق والسعي في تغيير الأوضاع، وصار له فيها تلامذة كثيرون تنوروا بفكرته واستفادوا منها كل منهم لمجاله، وكان خروجه من مصر علىٰ يد الخديوي توفيق.

كانت هذه السنوات الثمان أخصب حقبة في حياة الأفغاني، لقد كان فيها الموجه والمعلم غير الرسمي لفريق من الشباب، معظمهم من الأزهر، وممن كتب لهم أن يلعبوا دورًا هامًّا في الحياة المصرية، ثم شاء الله أن يغادرها بعد أن بذر فيها هذه البذور.

ومن أهم الآثار التي خلفها الأفغاني وراءه في مصر:

بيان الإسلام الصحيح الذي يربط الدين والعقل والشرع والواقع والمنهج بالمصدر الأصيل في الكتاب والسنة بعيدًا عن الموروثات الخاطئة.

توضيح خطر التدخل الأوروبي والحاجة إلىٰ الوحدة الوطنية لمقاومته.

الدعوة إلىٰ ضرورة السعي إلىٰ وحدة أوسع للشعوب الإسلامية.

بيان أهميَّة المطالبة بدستور يحدُّ من سلطة الحاكم.

تشجيع طلابه علىٰ الكتابة وإصدار الصحف وتكوين رأي عام، وهكذا أسهم بواسطتهم في تحريك الاختلاجات الأولىٰ للوعي القومي.

خرج الأفغاني من مصر قاصدًا الهند ومن الهند إلىٰ لندن، ومن لندن إلىٰ باريس، لقد ضاقت البلاد العربيَّة بجمال الدين وجهوده في الإصلاح ومساعيه في التغيير، لكنه لم يضق بها، كان في الهند ثم في لندن وأخيرًا في باريس يسعىٰ بنفس طاقته

ويبذل أقصىٰ جهده في إيصال صوته عن طريق الصحافة العالمية إلىٰ كل مكان ينادي الأحرار بوجوب التحرُّك ويوعيهم بخطورة التأخُّر في الإصلاح.

إنَّ المناضل يغير مكانه ولا يغيِّر عقيدته أو يحيد عن نضاله ففي أي مكان أقام يؤدِّي فيه دوره ويقوم بمهمته.

أصدر جمال الدين وتلميذه الإمام محمد عبده، الذي صار بعد ذلك مفتي مصر، جريدة صحفيَّة في لندن اسمها العروة الوثقىٰ، كانت تصدر من باريس لكن كانت توزع في البلاد العربيَّة.

وعادت البلاد العربيَّة إلىٰ الضيق بدعوة جمال الدين كما ضاقت بشخصه فأغلقت مصر والسودان أبوابهما في وجه الجريدة ولم يسمحوا بدخولها إلىٰ شعبيهما، ووصلت العدوىٰ أيضًا إلىٰ مسلمي الهند فعملوا مثل مصر والسودان، لكن الأفغاني لم يتوقف عن الكتابة في السياسة، فلئن أغلقت البلاد العربيَّة أبوابها دون العروة الوثقىٰ فإن الصحف الأجنبية التي تصدر بالعربية واللغات الأجنبية تدخلها رغمًا عنهم جميعًا فكان يكتب مقالاته في صحف باريس يبعث من خلالها

بخطبه الحماسيَّة الساخنة ومقالاته السياسية النقدية التي تذهب الغشاوة عن الأعين وتوقظ الشعوب من سباتها العميق.

إنَّ الاستبداد والظلم يضيق دومًا بكلمة الحق ويغلق دونها الأبواب ويطرد القائمين بها ويحاول حجب أصواتهم عن الناس، لكن الله يفتح لهم القلوب رغمًا عن الجميع حتىٰ لو سدُّوا كل منفذ وأغلقوا كلَّ طريق.

ومن باريس إلىٰ إيران إلىٰ بلاد كثيرة انتقل جمال الدين الأفغاني وتجوَّل فيها يأسر بخطابه الجماهير ويستقطب المعجبين ويتخذ التلاميذ النابهين، فقد كان يلقىٰ كل التقدير في الأماكن التي رحل إليها ونزل بها، وكان لكلمته تأثير قوي في البلاد الكثيرة التي زارها حتىٰ إن ثورة قامت ضد شاه إيران أجبرته علىٰ إلغاء اتفاقيات مع الإنجليز وفرض بعض السيادة الوطنية رغم أنف المحتلِّ وكان قيامها بسبب دعوة إصلاحية أصدرها الأفغاني في مقال كتبه بصحيفة (**ضياء الخافقين**) التي كان يصدرها من لندن.

وكان جمال الدين شديد الاعتزاز بالعلم ولا يعدل به

شيئًا، لما نزل إلىٰ الأستانة مرة أخرىٰ بدعوة من السلطان عبد الحميد: أراد السلطان أن يوليه رتبة رفيعة في الدولة، وكان تفكير السلطان في إعطائه رتبة قاضي عسكر، ولكن الأفغاني رفض، وقال لرسول السلطان: قل لمولاي السلطان إنَّ جمال الدين يرىٰ أن رتبة العلم أعلىٰ المراتب.

نعم والله رتبة العلم أعلىٰ المراتب ودونها كل مرتبة حتىٰ مرتبة السلطان نفسها إلا أن يكون السلطان عالمًا، وهل هناك من هو أعلىٰ درجة من النبيين وورثتهم في كلِّ زمان ومكان؟!

وكان منهج جمال الدين الأفغاني في الإصلاح الديني يتمثَّل في الدعوة إلىٰ القرآن الكريم والتبشير به وكان يرىٰ أنَّ القاعدة الأساسية للإصلاح وتيسير الدين للدعوة هي الاعتماد علىٰ القرآن الكريم، ويقول: القرآن من أكبر الوسائل في لفت نظر الإفرنج إلىٰ حسن الإسلام، فهو يدعوهم بلسان حاله إليه، لكنهم يرون حالة المسلمين السوأىٰ من خلال القرآن فيقعدون عن اتباعه والإيمان به.

فالقرآن عنده سبب الهداية وأساس الإصلاح، والسبيل إلىٰ نهضة الأمة، يقول: ومن مزايا القرآن أن العرب قبل إنزال

القرآن عليهم كانوا في حالة همجية لا توصف؛ فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتىٰ ملكوا عالم زمانهم، وفاقوا أمم الأرض سياسة وعلمًا وفلسفة وصناعة وتجارة.

فالإصلاح الديني لا يقوم إلا علىٰ القرآن وحده أولاً، ثم فهمه فهمًا صحيحًا حرًّا، وذلك يكون بتهذيب علومنا الموصلة إليه، وتمهيد الطريق إليها، وتقريبها إلىٰ أذهان متناوليها.

وقد أحدث جمال الدين الأفغاني نهضتين اجتماعيتين: نهضة اجتماعية علمية ونهضة سياسية، وكان الغالب علىٰ نشاطه النهضة السياسيَّة، ولعله رأىٰ أن النهضة السياسيَّة هي الأساس الذي يقوم عليه كلُّ شيء، فإن حدث الإصلاح في جانب السياسة صلحت الحالة العلمية والاجتماعيَّة والثقافية والتربويَّة وسائر الأحوال وهذا صحيح.

وقد كان مقصده السياسيُّ الذي وجه إليه أفكاره وأخذ علىٰ نفسه السعي إليه مدة حياته هو إنهاض الأمة والدولة الإسلاميَّة من ضعفها وتنبيهها للقيام علىٰ شؤونها حتىٰ تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية فيعود للإسلام

شأنه، ومن أهم الآراء التي كان الأفغاني يدعو إليها: الدعوة إلىٰ الوحدة الإسلامية بإقامة جامعة إسلامية تنضوي تحت لوائها دول العالم الإسلامي توحد كلمتها وأهدافها، في وجه الخطر المشترك.

وقد انقسم تلاميذه من بعده إلىٰ شطرين ذهبت طائفة إلىٰ الأخذ بالنهضة العلمية ويقف علىٰ قمة هذا الفريق الإمام محمد عبده مفتي الديار المصريَّة.

وذهبت طائفة أخرىٰ إلىٰ الأخذ بآرائه السياسية وعلىٰ رأسهم الزعيمان مصطفىٰ كامل ومحمد فريد وغيرهما.

كانت المحطة الأخيرة في رحلات جمال الدين هي الأستانة ولقي فيها كل ترحيب وتكريم إلا أنه منع من مغادرتها ففرضت عليه الإقامة الجبريَّة، وأجرىٰ له فيها السلطان راتبًا شهريًّا إلىٰ أن توفي جمال الدين بعد حياة مليئة بالجهود العظيمة، حافلة بالمساعي الجليلة في سبيل إصلاح الحياة بمنهج الله(١).

(١) انظر في سيرة الأفغاني: جمال الدين الأفغاني.. موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، د. محمد عمارة.

وهكذا كان الأفغاني شخصية مدهشة لامست حياتُه وأفكاره مشاعر العالم الإسلامي بكامله في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأثرت فيه تأثيرًا عميقًا.

استمرَّت تلك الحياة ستين سنة، أسلم جمال الدين الأفغاني بعدها الروح ولقي ربَّه مليء القلب والنفس والجسد شوقًا أن تكون دعوته آتت ثمرتها في إيقاظ الشعوب الإسلاميَّة، راجيًا أن يكون في تلامذته وطلابه من يحمل رسالته من بعده، آملًا أن يأتي يوم علىٰ أمة الإسلام ترىٰ فيه النور بكامله يوم تختار الإسلام الحق وتنفض الغشاوة عن عينيها لتعرف حقيقة الكنز الذي أضاعته يوم تنكبت طريقه وجنحت إلىٰ سواه.

وقد تحقق بعض ما أمَّله الأفغاني وبقي أكثره، فعسىٰ الله أن ييسر لأمة الإسلام تحقيق ذلك الباقي وتأويله.

وأملنا فيكم يا فتيان الإسلام الكرام أن تحيوا سيرة هؤلاء المفكِّرين العظام في أنفسكم وتبعثوا أعمالهم في النَّاس من جديد، فنجدد الثقة بالدين وتتوثق صلة الناس به، ويكون الإسلام واقعًا حيًّا في حياة المسلمين وواقعهم.

ونستطيع أن نستفيد من الأفغاني في صناعة المفكِّر الصفات التالية:

إخلاصَه القويَّ للدين؛ عقيدته، ومصادره، وتعاليمه، ودوله، والمؤمنين به.

إصراره الشديد علىٰ بلوغ الغاية وتحقيق الحلم والوصول إلىٰ الأمل مع التقلل من المعوِّقات كالرفاهية ومتع الحياة.

غيرته البالغة علىٰ الدين وحقائقه والدفاع عنه ضد الشبهات المثارة عليه من أبنائه وأعدائه علىٰ السواء.

ثقافته الإسلامية والعالميَّة الواسعة، التي جعلته يطلع علىٰ العلوم بلغات أهلها.

امتلاكه ناصية البيان، فقد كان الأفغاني خطيبًا يثير الجماهير ومتحدثًا لبقًا يقنعهم ويؤثر فيهم، وكان يحب الحركة عن التأليف ويؤثر السعي في الناس علىٰ الكتابة.

نضاله ضدَّ الاحتلال، فقد وقف الشطر الأكبر من حياته علىٰ الدفاع عن البلدان الإسلامية المهددة بخطر التوسع الأوروبي وغرس في الناس كراهية المحتل والمعتدي.

وضوح هدفه وسعيه إلىٰ تحقيقه بكل وسيلة.. وذلك الهدف هو:

إقناع المسلمين بأن عليهم أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح، وأن يعيشوا وفقًا لتعاليمه فلو أنهم فعلوا لغدت بلادهم قوية حتمًا، فالإسلام ليس لعبادة الله وحده فقط، بل لبناء مدنية إنسانية مزدهرة في كل مناحي الحياة.

وبمثل هذه المواصفات الكريمة يُبنىٰ المفكِّر وينبغ.

مفكِّـــرة

ليس الفكر حكرًا علىٰ الرجال وحدهم، بل ربما كان في النساءِ من هو أعقلُ من كثير من الرجال، ومن هؤلاء النساء امرأة عاشت في العصر الحديث يحسب قارئ سيرتها أنها بعض نساء الصحابة أو القرون الفاضلة في تاريخ الإسلام.

فقد كانت في بداية عهدها يهوديَّة، حيث ولدت لأبوين يهوديين من أصل ألماني، في أمريكا وتحديدًا في نيويورك عام ١٩٣٤م، وكان اسمها (مارجريت ماركوس)، ومع هذا سجلت أنها كانت تحب العرب وكانت تتطلع إلىٰ زيارة البلاد العربيَّة خصوصًا مدينة القدس لتلتقي بأبناء عمومتها، لأنها كانت وهي في طفولتها تحضر الدروس التي تقيمها مدرسة الأحد اليهودية، وتسمع الحاخام وهو يخبرهم بأن العرب واليهود هم أولاد إبراهيم الخليل عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم، فصارت تتمنىٰ أن تراهم وتجتمع بهم، وهذا عجيب منها في هذه البلد وهذا التوقيت وهذه الديانة.

وكانت وهي يهوديَّة تكره الخمر، فلم تذق الخمر في حياتها وهذا أيضًا عجيب.

ولم تلتق بالرجال أو تختلط بهم، ولم تحضر حفلات القوم، فقد كانت تبغض ذلك، وهذا أيضًا عجيب منها.

وحين ظهر قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧م، ويوم انتصرت إسرائيل سنة ١٩٤٨م ورأت والديها يحتفلان بنصر اليهود ويجمعان التبرعات لإقامة الدولة المسخ صارت تناقشهما بقوة في إقامة دولة اليهود على أحزان العرب وآلامهم، فعجبا من كلامها، وهو نعم عجيب.

لقد كانت هذه العجائب كثيرة في حياتها، لكن أيُّ شيء من أمر مارجريت ماركوس لم يكن عجبًا؟! لقد كانت يهوديَّة لكنها لا تفكِّر كاليهود، إنما تقرأ وتناقش وتسأل وتحلل، ولم تقف قراءتها عند حدود ديانتها بل قرأت في كل شيء.

وفي يوم من الأيام وقع بين يديها كتاب فيه ترجمة القرآن الكريم فقرأته عن آخره، وتأثرت به، وأبدت إعجابها بمحتواها وأسلوبها، وكانت الترجمة للبريطاني المسلم **محمد بيكتال**، ومقارنة هذه الترجمة بما قرأته بعد ذلك من تراجم القرآن الموجودة في الغرب قدمت لنا خلال كتاباتها ملاحظاتها ومناقشاتها وتفضيلاتها بينها وبين الترجمات الأخرى،

وهذا يدل علىٰ عمق وفهم كبيرين.

وقد أفادتها قراءة ترجمة القرآن كثيرًا وغيَّرت من نظرتها للإسلام وكان انطباعها الأول عند قراءة القرآن الكريم أنَّ هذا هو الدين الوحيد الحقيقي، وأنه لا شكَّ في صدقه، وصراحته، وإخلاصه، وأمانته، فهو الدِّين الذي لا يسمح بالتنازلات الرخيصة والنفاق علىٰ الإطلاق.

وكان فيما قرأت مريم أيضًا من كتب الإسلام كتاب **(مشكاة المصابيح)** مترجمًا إلىٰ الإنجليزية، وهو كتاب في الحديث النبوي الشريف، عثرت عليه في مكتبة نيويورك العامة، فعكفت عليه حتىٰ فرغت منه، واستطاعت من خلال ترجمة القرآن وهذا الكتاب أن تلم بطرف كبير من المعلومات عن الإسلام وتفهمه فهمًا جليلاً وبدأت مرحلة جديدة من التعاطي مع الكتب الإسلاميَّة.

ولقد كان لها تساؤلاتها الكثيرة بشأن الإسلام بناء علىٰ قراءاتها عنه وقراءاتها فيه ورصدها لأحوال المسلمين فاتصلت بشخصيات إسلامية رفيعة القدر في عصرها، وراسلتهم عن طريق البريد تستفسر منهم عن أجوبة مقنعة لأسئلتها وملاحظاتها، فكان ممن راسلتهم الشيخ **البشير الإبراهيمي** في

الجزائر، والأستاذ **سعيد رمضان** في جنيف، والدكتور **معروف الدواليبي** في سوريا، والأستاذ **سيد قطب** في سجنه بالقاهرة، والأستاذ **أبو الأعلىٰ المودودي** في باكستان.

وقد كان لمراسلتها لهذا العالم الأخير الأستاذ المودودي أكبر الأثر علىٰ واقعها ومستقبلها إذ كانت نقطة التحول في حياتها هي صلتها به والتي استمرت مراسلة فقط ثلاث سنين، تسأل مارجريت والأستاذ المودودي يجيب، في مناقشات تدل علىٰ عمق ثقافة مريم وغزارة اطلاعها حيث ناقشت مناقشة مطولة في أشياء كثيرة لها صلة بتاريخ وواقع ومستقبل الإسلام، وتدل علىٰ حسن أخلاق الأستاذ المودودي وكمال صبره في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

وفي سنة ١٩٦١م شرح الله صدر مارجريت للإسلام فأسلمت، وسمت نفسها **بمريم الجميلة**..

وابتدأت في حياتها مرحلة جديدة مع الإسلام، وقد استفادت كثيرًا من قراءاتها ومناقشاتها عن الإسلام قبل الدخول فيه، إذ لم تصدمها أحوال كثير من المسلمين ولا الدعاوىٰ المناوئة لحقائق الدين كالقوميَّات والمذاهب الإنسانيَّة والفرق الضالة المنتشرة بين المسلمين في الخارج،

واستطاعت أن تتعامل معها معاملة صحيحة.

وحينما كان عُمْر مريم ٢٧ سنة، وكانت تعيش مع أبويها اليهوديين وتحاول في أثناء ذلك أن تدعوهما إلىٰ الإسلام بطرق كثيرة فلم تفلح معهما، أخبرها والداها بأنهما بعد التقاعد سيتركان شقتهما ذات الغرف الأربعة، ويسكنان في شقة أخرىٰ صغيرة، وأنها ليس بوسعها أن تكون معهما، ولا بد أن تدبر أمرها!

ضاقت الدنيا عليها، فقررت الاستجابة لطلب الأستاذ المودودي الذي كان قد عرض عليها مرارًا أن تنتقل إلىٰ باكستان وكانت مترددة، فلما حدث ذلك من والديها قررت السفر لباكستان، واستطاع الأستاذ المودودي إقناع أمها وأبيها بذلك، وطمأنهما علىٰ ابنتيهما التي ستجد كل الرعاية والاهتمام، وفعلاً حزمت حقائبها وتركت نيويورك سنة ١٩٦٢م واتجهت إلىٰ لاهور في باكستان بالباخرة.. وحين وصلت إلىٰ باكستان استقبلها الأستاذ وأقامت مع أهله في بيتهم فترة، ثم زوجها من أحد تلامذته، وعاشت هناك حياة إسلامية رائعة، تشرف علىٰ حلقات نسائية لحفظ القرآن وتعلم الدين في بيتها، وتكتب الكتب وترسل الرسائل وتنشر المقالات.

ومريم جميلة على المستوى الشخصي مسلمة تعتز بأنوثتها وتفخر بتقدير الإسلام للمرأة ومحافظته عليها، وكانت تعتز كثيرًا بجلبابها السابغ، وهي امرأة مسلمة مثقفة قارئة حافظة للقرآن فقيهة في معانيه وأحكامه، تزوجت وأنجبت وربَّت أولادها ونشأتهم تنشئة طيِّبة.

وعلى المستوى العام هي داعية فذَّة متميِّزة بذكائها الحادِّ وشدة غيرتها على الإسلام، تدافع عنه برأي باهر وحجة قوية، وهي تدعو العرب والمسلمين لذلك في كتاباتها، ومن أقوالها في ذلك: لولا رسول الله محمد ﷺ لكان العرب شعبًا مجهولاً كالأسكيمو أو الزولو، ولولا القرآن الكريم لكانت اللغة العربية غير ذات أهمية إن لم تكن قد بادت.

وكتابات مريم جميلة مليئة بالنظرات الرائعة في نقد الحضارة الغربيَّة وتبصرة المسلمين بحقيقتها وترى أن ما يحدث اليوم لأمريكا هو تكرار لما حدث للإمبراطورية الرومانية في مراحلها الأخيرة للسقوط.

ولهذا كله اهتمت مريم جميلة بِحَثِّ المسلمين على الالتزام بالكتاب والسنة واعتنت بتجلية وجه الحقيقة لهم بشأن كثير من قضايا الإسلام والمسلمين الكبيرة، وأكدت

علىٰ أن التوجيهات اللازمة لنهضة المسلمين موجودة في القرآن الكريم وفي أعمال وأحاديث رسول الله ﷺ، وهذه التعليمات والتوجيهات ليست لأُناس يعيشون في زاوية بعيدة من العالم ولكنها للبشرية كلها التي ستجد في الإسلام الحلول لجميع المشكلات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية التي تواجهنا الآن في الغرب.

كتبت مريم جميلة ١٤ كتابًا، باللغة العربية والإنجليزية، ونفع الله بكتاباتها في العالم كله.

وقد تُوفِّيت مريم جميلة، عن عمر قارب الثمانين، يوم الأربعاء ١٥ ذو الحجة ١٤٣٣هـ الموافق ٣١ تشرين الأول ٢٠١٢م، رحمها الله وأغدق عليها رضاه[١].

(١) انظر: رحلتي من الكفر إلي الإيمان، قصة إسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية مريم جميلة.

مُصْلِـــح

مِـن النـاس مَـن يختـاره الله تعـالىٰ ليكـون داعيـة في بلـده يعلِّمهم.

ومنهم من يختاره الله لإعداد هؤلاء الدعاة الذين يقومون علىٰ تعليم النَّاس في كلِّ البلاد.

وهنـاك أيضًـا مـن النـاس مـن يقيمـه الله ﷻ لبنـاء الـدول الإسلاميَّة ومنهم من يقيمه الله تعالىٰ لإعداد بناة هذه الدول.

أولئك هم المصلحون الـذين يـأتون في زمـن قـد انحـرف فيـه النـاس عـن الـدين؛ تبـدلت فطـرتهم، وانتكسـت ديـانتهم، وارتجعت حضارتهم، وتفتت شملهم، وتأخر ركبهم، فيصيح فـيهم هـؤلاء المصـلحون صـيحة الإيقـاظ ليهبـوا وينتبهـوا، ليراجعوا دينهم في ثوبه الأول، ويجددوا فطرتهم علىٰ الصـورة الأولىٰ، ويقيموا الدين فتقوم الدنيا معه.

وقد رزق الله أمة الإسلام في تاريخها الطويل بمـن يصـلح أحوالهـا كلَّمـا تغيَّـرت وتبـدَّلت، كمـا أخـبر النبـي ﷺ، ففـي الحـديث الصـحيح: «**إن الله يبعـث لهـذه الأمـة علىٰ رأس كـل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

ومن هؤلاء المجددين المصلحين إمام قيَّضه الله ﷻ للتذكير بحقائق الإسلام في القرن الثالث عشر الهجري بعد أن ساد في العالم الاسلامي انحراف عن كثير من أصول الدين وسنة النبي ﷺ.

لقد غلب علىٰ الناس خلال ذلك العهد تصوُّرات كثيرة مخالفة للشرع الحنيف..

منها: الدعاء وطلب الحاجات من غير الله.

ومنها: تقديم كثير من العبادات للأضرحة والقباب.

ومنها: التوسل بالمشايخ والصالحين أحياءً وأمواتًا.

وانتشرت البدع والعادات والتقاليد التي حرمها الإسلام، وعمَّ العالم الإسلاميَّ غبش كثير غطَّىٰ علىٰ صورة الإسلام الحقيقيَّة.

فتصدَّىٰ هذا الإمام لهذه الانحرافات ودعا الناس إلىٰ صفاء الإسلام ونقائه، حتىٰ عمت دعوته ونفع الله بها في وقتها وبعده، وأصداء دعوة هذا المصلح الديني الكبير موجودة وافرة منتشرة إلىٰ يومنا وإلىٰ ما شاء الله تعالىٰ، وقد نفع الله به وبدعوته في كل بلاد العالم، في العرب وفي الغرب، في الدول

الإسلاميَّة وبين المسلمين في غيرها، بل وغير المسلمين حيث دخل كثير منهم الإسلام علىٰ أيدىٰ حملة دعوته، وهذا المصلح المجدد هو الإمام **محمد بن عبد الوهاب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولد محمد في نجد، بجزيرة العرب، سنة ١١١٥ هـ/ ١٧٠٣م، وكان أبوه عالمًا وقاضيًا، فتعلم علىٰ يديه العلم، حتىٰ حفظ القرآن في سنٍّ مبكرة، وتفقَّه، ونشأ نشأة صالحة، وفي سن الخامسة عشرة أدَّىٰ فريضة الحج، وأخذ العلم عن شيوخ الحرمين، ثم رحل إلىٰ العراق فلقي علماءه، وكان في هذا الوقت يرىٰ من أحوال المسلمين خلاف ما يتعلمه في القرآن وفي سنة النبي ﷺ، فأخذ يأمر الناس بما عرف من الكتاب والسنَّة وينكر ما لا يعرفه منهما، وكان يساعده علىٰ ذلك عقل راجح وفكر رصين ولسان مبين فأظهر الدعوة إلىٰ توحيد الله ودعا الناس إلىٰ السنة، وعرفهم أن الواجب علىٰ جميع المسلمين أن يأخذوا دينهم عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وناقش وذاكر في ذلك وناظر العلماء.

وهذا واجب العالم الذي رزقه الله فهم دينه والبصيرة به؛ أن يعلمه للناس ويفهِّمهم إيّاه، ويدعوهم إلىٰ الالتزام بما فيه

من خير واجتناب الشرور ليحبهم الله تعالىٰ ويرضىٰ عنهم، واجب العلماء ووظيفتهم: البيان والبلاغ للناس، فهم ورثة الأنبياء والمرسلين، وكتمان هذا العلم والقعود عن القيام بهذه الوظيفة حرام، بل هو كبيرة من كبائر الذنوب يلعن الله صاحبها ويسخط عليه ويدخله النار، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وكشأن الدعاة إلىٰ الله والمجددين والمصلحين في كل زمكان ومكان لقي محمد وهو في العراق كثيرًا من الأذىٰ لأجل دعوته تلك من قبل الشيوخ المنتفعين بعوائد هذه القبور، ومن غيرهم من الذين لم يفهموا دعوته ووجدوها تعارض ما ورثوه عن آبائهم وعاداتهم التي عرفوها، حتىٰ أكره علىٰ الخروج من العراق وكان قصد الشام لكنه غيَّر وجهته فتوجه إلىٰ الجزيرة العربيَّة واستمر في نشاطه بها فاجتمع بعلمائها وذاكرهم في أشياء من أصول الدين، مع اشتغاله بالعلم والتعليم والدعوة، وقد لقي هناك كثيرًا من الشدائد حتىٰ إنَّ بعض الأشرار دبَّر لقتله، فإنه كان في جميع وقته آمرًا

بالمعروف ناهيًا عن المنكر وكان يحث الأمراء علىٰ تعزير المجرمين الذين يعتدون علىٰ الناس بالسلب والنهب والإيذاء، ومن جملتهم هؤلاء الأشرار فلما أدركوا أنه لا يرضىٰ بأفعالهم وأنه يحرِّض الأمراء علىٰ تأديبهم والحدِّ من شرهم فإن امتنعوا وإلا لقَوا عقوباتهم؛ غضبوا من كلام الشيخ ونقموا عليه، وهمُّوا أن يفتكوا به، فصانه الله وحماه منهم.

وهكذا يلاقي أهل الإصلاح من الأذىٰ والشرور في كل زمان ومكان، فليست الطريق إلىٰ الإصلاح سهلة أو ميسورة لأنها ضد رغبات بعض الناس وأهوائهم ومصالحهم، ولهذا يجب أن يوطِّن المصلح نفسه علىٰ الصبر واحتمال الأذىٰ بل والعفو حتىٰ يصل إلىٰ هدفه ويحقق غايته.

استقر المقام بالشيخ محمد في بلدة **العيينة** وكان حاكمها في هذا الوقت هو الأمير عثمان بن محمد بن معمر، فنزل عليه الشيخ ورحَّب به الأمير، وحين سمع منه اقتنع بكلامه ودعم دعوته وآزره وشجعه عليها، وكان فيما قاله للشيخ: قم بالدعوة إلىٰ الله ونحن معك وناصروك. وأظهر له الخير، والمحبة والموافقة علىٰ ما هو عليه.

اشتغل الشيخ في العيينة بالتعليم والإرشاد والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وتوجيه الناس إلىٰ الخير والمحبة في الله، وكانت عنايته تشمل الناس جميعًا؛ رجالهم ونسائهم، واشتهر أمره في العيينة وعظم صيته وجاء إليها الناس من القرىٰ المجاورة، وكانت نية الشيخ والأمير نيةً صالحةً، وقصدهما قصدًا مستقيمًا ورغبتهما نصر الحق، فيسَّر الله لهما الدعوة إلىٰ فضائل الإسلام وإزالة كثير من المنكرات، ومن أبرز هذه المنكرات أشجار وأحجار وقباب وأضرحة كان الناس يتوسلون بها ويتبركون عندها وينذرون لها، فنهىٰ الشيخ الناس عن ذلك وعرَّفهم خطورته، ثم أزال هذه المشاهد والآثار، يدعمه في عمله ذلك الأمير العادل، وكان من أثر دعوته هداية جموع عظيمة من الناس وتبصيرهم بأصول الدين وحقائق الشرع، واجتناب الظلم وسفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الحرمات وغيرها من الأمور التي كانت تنتشر وقتها في البادية.

ومن العيينة انتقل الشيخ إلىٰ الدرعيَّة وأميرها يومئذ محمد بن سعود، الذي أحسن استقباله بمشورة من امرأته وكانت امرأة صالحة طيبة سمعت بالشيخ فتحرَّت عن دعوته واقتنعت بها وأحسنت المدخل لزوجها في عرضها عليه

وإقناعه بها، فلما دخل عليها زوجها الأمير قالت له: أبشر بهذه الغنيمة العظيمة! هذه غنيمة ساقها الله إليك؛ رجل داعية يدعو إلىٰ دين الله، ويدعو إلىٰ كتاب الله، يدعو إلىٰ سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام يا لها من غنيمة! بادر بقبوله وبادر بنصرته، ولا تقف في ذلك أبدًا.

فقبل الأمير مشورتها، ثم تردد هل يذهب إليه أو يدعوه إليه؟! فأشارت عليه وقالت له: لا ينبغي أن تدعوه إليك، بل ينبغي أن تقصده في منزله، وأن تقصده أنت وتعظم العلم والداعي إلىٰ الخير، فأجاب الأمير الكريم إلىٰ ذلك لما كتب الله له من السعادة والخير.

فذهب إلىٰ الشيخ في البيت الذي نزل فيه، وقصده وسلم عليه وتحدث معه، وقال له: يا شيخ محمد، أبشر بالنصرة وأبشر بالأمن وأبشر بالمساعدة.

فقال له الشيخ: وأنت أبشر بالنصرة أيضًا والتمكين والعاقبة الحميدة، هذا دين الله من نصره نصره الله، ومن أيَّده أيَّده الله وسوف تجد آثار ذلك سريعًا.

فقال: يا شيخ سأبايعك علىٰ دين الله ورسوله، ولكن

أخشىٰ إذا أيَّدناك ونصرناك وأظهرك الله أن تبتغي غير أرضنا، وأن تنتقل عنا إلىٰ أرض أخرىٰ.

فقال: لا أبايعك علىٰ هذا، أبايعك علىٰ أن الدم الدم والهدم الهدم لا أخرج عن بلادك أبدًا، فبايعه علىٰ النصرة وعلىٰ البقاء في البلد وأنه يبقىٰ عند الأمير يساعده حتىٰ يظهر دين الله، وتمت البيعة علىٰ ذلك.

وهكذا تشارك الشيخ والأمير في الدولة والدعوة ونهضا يتوسعان ويَعُمَّان الأرجاء بدعوتهما يزيلان المنكرات ويحققان الخيرات، حتىٰ عمَّ دين التوحيد الصافي من الشرك وسنة رسول الله ﷺ الخالصة من البدع أرجاء الجزيرة العربية، وامتد تأثير ذلك إلىٰ كل بلاد العرب، ثم إلىٰ كثير من دول وأفراد العالم الإسلامي وباقي العالم.

وقد استغل الشيخ في سبيل تبليغ دعوته وتحقيق الإصلاح المنشود كل وسيلة شريفة توصِّله إلىٰ ذلك؛ بتأليف الكتب، وإلقاء الخطب، ومناقشة المتردِّدين، ومناظرة الخصوم، ومراسلة الملوك، وتربية الناس، وإعداد العلماء، وإرسال البعثات الدعويَّة والعلميَّة إلىٰ الأرجاء، وتوسيع رقعة

الدولة مع الأمير ابن سعود لتشتمل علىٰ كل أرجاء الجزيرة وتوحيدها تحت لواء واحد، ومحاربة المنكرات، وإزاحة الشبهات، وتسوية القبور بالأرض كما هي السنة فيها، وهدم القباب التي علىٰ المساجد وغير ذلك من المنكرات، فآتت هذه الجهود كلها ثمرتها إخلاص الشيخ والأمير وجِدُّهما في السعي بدعوتهما.

مع تحلي الشيخ بالصبر والرفق والأناة والعزيمة، في همة وعلم وحكمة وبصيرة وحجة قويَّة.

وملخص دعوة الشيخ: ألا يُعبد إلا الله وألا يُعبد إلا بما شرع، والتحذير من الشرك مع شرح صوره ليحذرها المسلمون، ونقد خرافات التصوف، وإجلال محمد ﷺ كنبيٍّ مع النهي عن الغلو فيه.

والشيخ علىٰ طريقة السلف الصالح يؤمن بالله وبأسمائه، وصفاته، ويؤمن بملائكته، ورسله، وكتبه، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وهو علىٰ طريقة أئمة الإسلام في توحيد الله، وإخلاص العبادة له جل وعلا، وفي الإيمان بأسماء الله وصفاته علىٰ

الوجه اللائق بالله سبحانه، لا يعطل صفات الله، ولا يشبه الله بخلقه، وفي الإيمان بالبعث، والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك.

هذا ولا نقول: إن الجزيرة وقتها قد خلت من علماء الخير، بل كان فيها وفرة من أهل العلم والفضل، ولكن لم يقدر لهم أن ينشطوا في الدعوة وأن يقوموا بها كما ينبغي.

وكان هناك أيضًا في اليمن وغير اليمن دعاة إلىٰ الحق وأنصار قد عرفوا هذا الشرك وهذه الخرافات، وبذلوا جهودًا في إزالتها والدعوة إلىٰ تركها وتجنيب الناس شرورها، ولكن لم يقدر الله لدعوتهم النجاح ما قدر لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

لقد ظل الشيخ الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب وفيًّا لدعوته يرشد الناس إلىٰ توحيد الله، ويأمرهم بالتزام شريعته، ويحذرهم من الشرك؛ وسائله وذرائعه، ويأمرهم بالبعد عن البدع والخرافات، وينشر فيهم العلم والعمل، حتىٰ لقي ربه عَزَّوَجَلَّ راضيًا مرضيًّا، تاركًا أهلًا وولدًا ودعوة ودولة قائمة علىٰ ما كان عليه، وقد سمعت الدنيا كلها بدعوته

الإصلاحية واستجاب لها من أرجائها ناس كثيرون، نعم؛ لم تذهب صيحة ابن عبدالوهاب عبثًا في الجزيرة العربية ولا في أرجاء العالم الإسلامي من مشرقة إلىٰ مغربه، فقد تبعه كثير من الحُجَّاج وزوَّار الحجاز، وسرت تعاليمه إلىٰ الهند والعراق والسودان وغيرها من الأقطار النائية، وأدرك المسلمون أنَّ علة الهزائم التي تعاقبت عليهم إنما هي في ترك الدين لا في الدين نفسه، وأنهم خلفاء يجب أن يستردوا ما فاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع، والعودة إلىٰ دين السلف الصالح في جوهره ولبابه.

وتأثرًا بدعوة الشيخ المصلح قامت دعوة **رشيد رضا** في مصر، ودعوة **سيدي محمد بن عبدالله** في المغرب، والشيخ **عثمان دان فوديو** في مملكة سكوتو التي شملت مساحة واسعة امتدت إلىٰ مالي وغينيا والسودان وغيرها من القلب الإفريقي، ودعوة المؤرِّخ **أبو روَّاس الناصريِّ** في الجزائر، **وأسرة الألوسي** في العراق، **والشوكاني والصنعاني** في اليمن، وفي كثير من البلاد كما في دعوة **السيد أحمد الباريلي** في البنجاب من بلاد الهند.

حتىٰ قال المؤرخ الكبير خير الدين الزِّرِكْلي في كتابه **(الأعلام)**، عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب: وكانت دعوته الشعلة الأولىٰ للنهضة الحديثة في العالم الإسلامي كله، تأثر بها رجال الإصلاح في الهند، ومصر، والعراق، والشام، وغيرها(١).

حقًّا لقد كانت وما تزال تلك الدعوة -في جوهرها الأصيل- دعوة مباركة.

رحم الله الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ورضي عنه.

(١) انظر: حياة محمد بن عبد الوهَّاب وحقيقة دعوته، تأليف الأستاذ الدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م، محمد بن عبد الوهَّاب مصلح مظلوم ومفترىٰ عليه، الأستاذ مسعود الندوي، ترجمة وتعليق عبد العليم عبد العظيم البستوي، مراجعة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، ١٤٢٠هجري.

عـــالم

اختار الله نبيَّه ﷺ من بين الناس أجمعين لحمل رسالته وتبليغها إلىٰ العالم، واختار له أفضل الأصحاب ليعاونوه علىٰ تبليغها في حياته وحملها بعد وفاته.

وقد نبغ الصحابة رضوان الله عليهم في مجالات كثيرة؛ الجهاد في سبيل الله وقيادة الجيوش، والدعوة إلىٰ الله وهداية النَّاس لطريقه، والعلم بأحكام الكتاب والسنَّة وفقههما، وكثير من المجالات يخدمون دين الله من خلال نبوغهم فيها وإبداعهم في معرفة حقائقها والغوص في كنوزها وإثرائها.

وكان من أعظم هذه المجالات مجال العلم، حيث شغف به جمع منهم، توفروا علىٰ تحصيله، وطلبه من مظانه، واهتموا بجمع مسائله لدىٰ كل من عنده شيء منه.

وقد تخصص كل واحد من هؤلاء النابهين من أصحاب الرسول ﷺ في قسم من أقسام العلم وفنٍّ من فنونه، مثل: معاذ رضي الله عنه ؛ تخصص في تعلُّم الفقه، حتىٰ صار أعلم الناس بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت رضي الله عنه تخصص في تعلم الفرائض والمواريث، فكان أكثر الصحابة إلمامًا بمسائلها،

وأبيِّ بن كعب رضي الله عنه تخصص في تلقِّي القرآن الكريم ومعرفة أدائه ومعانيه، وكثيرون غيرهم تخصصوا في تخصصات شتىٰ.

ومن الصحابة من كان ملمًّا بجميع أنواع العلوم، نابغًا فيها كلها، لا يغادر تخصصًا من هذه التخصصات إلا واطلع عليه واجتهد في تحصيل أصوله وفروعه وبرع فيه، ومن هؤلاء الموسوعيين البارعين الجامعين بين العلوم: **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما، الصبي الذي توفَّي رسول الله ﷺ وعمره لا يتجاوز خمس عشرة سنة، فقد ولد قبل الهجرة بثلاث سنين فقط، ومع هذا اجتهد في تحصيل العلم اجتهادًا كبيرًا وحصّل آثار النبي ﷺ جميعها فلم يبق عند واحد من الصحابة علمٌ من القرآن أو السنة وما يتصل بهما إلا أتاه عبد الله بن عباس وسمع منه فصار بذلك أعلم الأمة، وحفظ الله بسببه علوم الإسلام.

إنَّ الحياة لا تقاس بالزمان من أيام وشهور وسنوات، بل تقاس بما فيها من العطاء والبذل، وحُسْنِ الأثر، وخير مثال علىٰ ذلك عبد الله بن عباس، فإن ما فاته من العلم لعمره الصغير حصله واستدركه، واستغل سنيَّ عمره كلها في جمع العلم وإنفاقه وصدق الله فصدقه، واليوم لا يذكر شيء من

العلم إلا وله رضي الله عنه أثر فيه ومنَّة علىٰ كل الذين أتوا من بعده، فلله تلك الهمة التي جعلت ذلك الصغير يتقدم في هذا المجال جميع الكبار الذين كانوا معه.

لقد كان ابن عباس حريصًا علىٰ القرب من النبي ﷺ حال حياته، وملازمته ليتعلم منه العلم، ويبيت عنده في الليل عند خالته ميمونة زوجة النبي ﷺ لكي يتعلم من علم رسول الله ﷺ ما لا يمكن للناس تعلُّمه كقيامه بالليل، وأذكار نومه ويقظته، وغيرها من العلم بأمور في العبادات والمعيشة.

عن كريب أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتيت خالتي ميمونة، فقلت: إني أريد أن أبيت الليلة عندكم.

فقالت: وكيف تبيت، وإنما الفراش واحد؟

فقلت: لا حاجة لي به، أفرش إزاري، وأما الوساد، فأضع رأسي مع رؤوسكما من وراء الوسادة.

قال: فجاء النبي ﷺ فحدثته ميمونة بما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فقال ﷺ: «**هذا شيخ قريش**».

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما من رجال الكمال فطرة وجبلَّة،

وقد استطاع أن يصقل هذه الفطرة وينميها بصحبة النَّبي ﷺ وكثرة ملازمته، ويكأنَّه كان يعوِّض ما فاته من صحبته، ويتزود منه لمستقبل أيَّامه حين يفقده، وقد رزقه الله تعالىٰ من العلم والفهم علىٰ قدر همته تلك وصدقه.

وظلَّ هذا الحرص علىٰ العلم دأبه حتىٰ تُوفِّي النبيُّ ﷺ، فانتقل إلىٰ ملازمة كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم يسألهم ويتعلم منهم، بل كان يطوف علىٰ بقيَّة الصحابة ليسمع منهم ما سمعوه ورأوه من رسول الله ﷺ.

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما مجتهدًا في تحصيل العلم، صاحب همة عظيمة في طلبه والتفتيش عنه، وها هو يحكي لنا شيئًا من ذلك، فيقول: لما توفي رسولُ الله ﷺ، قلت لرجل من الأنصار: يا فلان! هلمَّ فلنسأل أصحاب النبي ﷺ، فإنهم اليوم كثير!

فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترىٰ الناس يحتاجون إليك، وفي الناس مِن أصحاب النبي ﷺ مَن ترىٰ؟

قال ابن عباس: فتركت ذلك، وأقبلتُ علىٰ المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسَّد

ردائي علىٰ بابه، فتُسْفِي الريحُ علىٰ وجهي التراب، فيخرج، فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟

فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك.

فأسأله عن الحديث.

قال: فبقي الرجل حتىٰ رآني وقد اجتمع الناسُ علَيَّ، فقال: كان هذا الفتىٰ أعقل مني.

ونستفيد من هذه القصة أن ابن عباس لم يُقدَّم له العلم علىٰ طبق من ذهب، بل جدَّ في طلبه واجتهد في جمعه وتعب في تحصيله.

وقد شهد له أساتذته ومعلموه بالخير والفضل حتىٰ دعا النبي ﷺ له بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل، اللهم علمه الكتاب والحكمة**».

وكان عمر رضي الله عنه يثني عليه ويمدحه ويقول عنه: إنه فتىٰ الكهول، له لسانٌ سَؤول، وقلبٌ عَقولٌ.

وكان عمر أيضًا يحرص علىٰ مشورته في كل أمر كبير وصغير.

إنَّ من فطنة طالب العلم اغتنام الفرص بالاقتراب من العلماء وسؤالهم والتعلم عنهم، وهذا ما كان من ابن عباس رضي الله عنهما، وهو من يقول: مكثتُ سنةً أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتىٰ خرج حاجًّا فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق؛ عَدَلَ إلىٰ الشجر لحاجة له، قال: فوقفت له حتىٰ فرغ، ثم سِرتُ معه، فقلت: يا أمير المؤمنين! من اللتان تظاهرتا علىٰ النبيِّ ﷺ من أزواجه؟

فقال: تلك حفصة وعائشة.

قال: فقلت: والله إن كنتُ لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبةً لك.

قال: فلا تفعل! ما ظننتَ أن عندي مِن علمٍ فاسألني، فإن كان لي علم أخبرتك به، ثم حدثه بحديث هذا الأمر.

وهذه شهادة من أحد أكابر أصحاب ابن عباس تلخِّص ما كان يعانيه ابن عباس من تتبع، وحرص علىٰ استدراك ما فاته، مما وقع لا بتقصير منه، بل بسبب صغر سنِّه:

يقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: كان ابن عباس قد فات

الناس بخصال: بعلم ما سبق، وفقهٍ فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وكَرَم، وما رأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أعلم بما مضىٰ، ولا أثقب رأيًا فيما احتيج إليه منه، ولقد كنا نحضر عنده، فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب، والعشية كلها في الشعر.

يقول ابن عباس عن نفسه: إني كنت لأسأل عن الأمر الواحد، ثلاثين من أصحاب رسول الله.

وكان رضي الله عنه حريصًا علىٰ الاتصال بالقرآن الكريم بوجه خاص، فاتصل به حفظًا، وفهمًا، وتدبراً، وعملاً.

فأما الحفظ فإنه قد حفظ المفصل وهو الربع الأخير من القرآن تقريبًا في زمان النبي ﷺ، وأما الفهم والتدبر فيدل عليه استشارة عمر رضي الله عنه له في تفسير سورة النصر وله في ذلك قصة جميلة حيث كان عمر رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين يدخله مع أشياخ الصحابة في مجلس الشورىٰ وله وقتها من العمر خمسًا وعشرين سنة فعاتب فيه أكابرُ قريش عمرَ رضي الله عنه وعدم إدخال أقرانه من أبنائهم!

فقال لهم عمر: (إنه ممن قد علمتم) يعني مكانته في العلم والفقه بأمور الدين.

قال ابن عباس: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني.

فقال: ما تقولون في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢] حتىٰ ختم السورة؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا.

فقال لي: يا ابن عباس! أكذاك تقول؟

قلت: لا.

قال: فما تقول؟

قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

وهكذا كان ابن عباس علىٰ علم عظيم عميق بمعاني القرآن الكريم وتدبره.

وأما عمل ابن عباس بالقرآن وحرصه علىٰ تطبيق أوامره واتباع منهجه فيوضحه ما ذكره عنه تلميذه ابنُ أبي مليكة، قال: صحبتُ ابنَ عباس مِن مكة إلىٰ المدينة، ومن المدينة إلىٰ مكة، فكان إذا نزل منزلاً قام شطر الليل فأكثر في ذلك النشيج، قلت: وما النشيج؟ قال: النحيب البكاء، ويقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

ولغزارة علم ابن عباس لقب بالبحر والحبر، يعني أنه عالم واسع العلم غزير المعلومات(١)، وهكذا كان طريق ابن عباس إلىٰ تحصيل العلم: الهمة والسعي في السؤال والتحصيل.

ولا بد لطالب العلم من علوِّ الهمَّة، ولا بد له من السعي، ولا بد له من الطلب والسؤال، ويعينه علىٰ ذلك كله علو همته ففيها مفتاح كلِّ خير.

---

(١) راجع في سيرة ابن عباس: موسوعة أعلام الإسلام: عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، مصطفىٰ سعيد الخن، دار القلم.

ويساعد المرء علىٰ تنمية الهمة ما يلي:

شكر نعمة الله عليه وإن قلَّت فكلما استحدث علمًا عمل به وذلك من شكره.

وصدق اللجوء والافتقار إلىٰ الله وإدمان الدعاء ليعينه فلا عون للمرء ولا بلوغ غاية ولا تحقيق حلم إلا بتوفيقه ﷻ.

والصبر والاصطبار فطريق العلم طويل ويحتاج إلىٰ صبر وتحمُّل.

ومخالفة الهوىٰ والصبر عن الدنيا وجمع الهم علىٰ العلم وتأجيل المتع والرغائب فلا يطيع طالب العلم نفسه في كل ما تطلب، حتىٰ يتم له مقصوده ولا يتشتت باله بين أمور كثيرة فيفوت مقصوده.

وأن يأخذ بحظه من عزلة عن الكلام إلا في خير، وعزلة عن مخالطة النَّاس إلا في طاعة، وعزلة عن فضول المجالس إلا من ضرورة.

فإن أردت أن تكون عالمًا ونعم ما ترجو ويا لعظمة ما تطلب، فاحرص علىٰ:

أن تُخلص النيَّة لله تعالىٰ فيما عزمت عليه، وأن تصحح قصدك فيما تطلب أن تنصر دينك وأمتك.

أن يكون لك عزم من حديد وهمة لا تكلُّ في طلب ما تحلم به حتىٰ تبلغه وتحققه ولا تقعد دونه.

أن تلحق بركب العلماء الربانيين الذين عرفت الأمة نصحهم وإخلاصهم لدينهم وقاموا بحق شرع الله في السراء والضراء.

أن تتعلَّم في كليَّة شرعيَّة علميَّة تؤهلك لهذا العمل الكريم وترقيك لتلك المهمة العظيمة مهمة حمل العلم وأمانة تعليمه للناس.

أن تكون تلك المهمة رسالة لك تسير بها علىٰ طريق الأنبياء، لا وظيفة تتكسب بها وتسترزق منها، فتكون مع رسالتك بحسب ما يمليه عليك الدين، لا كما يطلبه منك المموِّل ومالك راتبك.

أن تحرص علىٰ تنويع معارفك وتعديد ثقافاتك وتنمية مهاراتك، بالرحلة إلىٰ العلماء، والجلوس بين أيديهم في حلق العلم المختلفة ومجالاته المتنوعة، وتتدرَّب علىٰ وسائل

التواصل الفعال واكتساب الخبرات عن طريق الرحلات والدورات والمشاركة في المناشط العلميَّة المختلفة الخاصة بذلك.

أن تطالع التراث وتهضمه، وتطلع علىٰ منجز علماء العصر وتُحكِمَه، وتربط بين ذلك كله وبين الواقع برباط وثيق، ثم تخرجه لنا شهدًا مصفًّىٰ متعدد الألوان والفوائد والدسم صالحًا سائغًا، يغري برؤيته ومحبَّته والتغذِّي عليه وطلبه علىٰ الدوام.

أن تحقق علمك وتتأكد لصواب معارفك، وأن تعمل به، وأن تبلغه للناس كاملًا غير منقوص، أحبوا الحقيقة فيه أَمْ كرهوها، قبلوها أو لهوىً فيهم عارضوها.

أن تربِّي من أبناء المسلمين من يمشي علىٰ ذات الطريق وتشجع من يسلك مسلكك حتىٰ يبقىٰ الخير في النَّاس.

بهذه الطريقة، وبهذه الطريقة فقط، يعمر داخلك بالعلم والحكمة وتصير من العلماء الربانيين.

مـــؤرِّخ

شرَّف الإسلامُ العلمَ وفضَّله، ودعا إليه وحبَّبه، فهو ميراثُ الأنبياء، وهو مقامُ الشهداء علىٰ الحقِّ، وهو النافعُ للإنسان في حياته وبعد مماته، وأهلُه هم ولاة الأمر الذين أمر الله بطاعتهم، وحملتُه هم القائمون علىٰ أمر الله تعالىٰ حتىٰ تقوم الساعة، فلا عجب أن كان طريق الجنة؛ كما دلَّ علىٰ ذلك حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ومَن سلَك طريقًا يَلتمس فيه علمًا، سهَّل الله به طريقًا إلىٰ الجنَّة**»(١).

وكيف لا يكون كذلك من هم الدعاة والهداة والنجوم التي يهتدي بها السالكون في طريق الله؟!

ومن العلوم العظيمة في الإسلام علمُ التاريخ، وهو علمٌ عظيمُ الأهمية جدًّا، فبه نعرف التجارب التي مرَّت بالسابقين، فنحرص علىٰ الخير منها ونتجنب الشر، ونعرف أصدقاءنا وأعداءنا، ونستفيد منها فنخطط لواقعنا ومستقبلنا، فبمعرفة تاريخ الحضارات السابقة وكيف قامت؟ وما هيَ عوامل

(١) رواه مسلم (١٣٨٢).

ازدهارها ونهضتها؟ وما هيَ أسباب دمارها وزوالها؟ نختصر علىٰ أنفسنا العديد من التجارب ونتحاشَىٰ الخطأ السابق ونمضي قُدُمًا نحوَ ما أراهُ التاريخ لنا مُناسبًا، وعن طريق التاريخ نتَّصل بأجدادنا وأمجادنا، ونتعرَّف علىٰ النماذج القدوة التي نقدِّمها لأبنائنا.

وغير هذا كثير.

ولهذا رأينا من علماء الإسلام من يتخصَّص في هذا العلم ويقف حياته كلَّها عليه، يُدوِّنه، ويفتِّش فيه، ويقدِّم لنا عصارتَه، ومنهم من برز فيه وفي غيره من العلوم وهو في كل علم منها كأنه متخصص فيه وحده قد أتقنه وأجاده كأنه متفرّغ له في كل أحواله وأوقاته، وقد برز من بين هؤلاء المؤلِّفين في التاريخ مؤرِّخون عظام أمثال الأئمة: **ابن جرير الطبري، ابن إسحاق، ابن هشام، ابن الأثير، بهاء الدين بن شداد، ابن العَديم، ابن خلدون، ابن خِلِّكان، الذهبي، وابن كثير**، وغيرهم وغيرهم من مؤرِّخي الإسلام النجباء.

وسيرة هؤلاء المؤرِّخين عامرةٌ بالعلوم النافعة والأخلاق الطيبة والصفات الحميدة، لا ريب فقد اكتسبوا علمًا كثيرًا

فاقتبسوا أفضل ما علموا فجعلوه في أعمالهم وسلوكهم وصفاتهم فصارت فيهم كأنَّها شخصيَّات عظيمة ومآثر كريمة اجتمعت في شخصيَّة واحدة.

وفي هذه السطور نلقي بعضَ الضوء علىٰ سيرة واحد من أعظم المؤرِّخين وهو الإمام **أبو جعفر محمد بن جرير الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأخبار حياته كلها خيرٌ ونورٌ وبركةٌ.

والإمام الطبري إمامٌ متعدِّد المواهب، فهو إمام في التفسير، وإمام في العقيدة، وإمام في الحديث، وإمام في الفقه، وإمام في التاريخ أيضًا، فقد ألَّف كتابه العظيم (**تاريخ الرسل والملوك**) ليصبح موسوعة علميَّة يقصدها كلُّ من أراد معرفة تاريخ الدنيا إلىٰ القرن الثالث الهجري، العاشر الميلادي، وهو العصر الذي عاش فيه الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولتأليف هذا الكتاب قصَّة تدلُّ علىٰ همَّة الإمام العظيمة وسعة علمه، فقد روىٰ الخطيب في (**تاريخ بغداد**): أنَّ الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال يومًا لأصحابه: أتنشطون لأملي عليكم تفسير القرآن؟

فقالوا: كم يكون قدره؟

قال: ثلاثون ألف ورقة، وهذه تكتب في ٢٠٠ مجلد تقريبًا.

فقالوا: هذا مما تفنىٰ الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، وهو ما يعادل ٢٠ مجلدًا تقريبًا، وهو الكتاب المعروف الآن **بتفسير ابن جرير الطبري** واسمه: **(جامع البيان عن تأويل آي القرءان)**.

ثم قال لهم: هل تنشطون لكتابة تاريخ العالم من آدم إلىٰ وقتنا؟

قالوا: كم قدره؟

فذكر الطبري نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنىٰ الأعمار قبل تمامه.

فقال الطبري: إنَّا لله ماتت الهمم!

فاختصر كتاب التاريخ أيضًا في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

وهذا التاريخ هو المعروف الآن بـ **(تاريخ الأمم والملوك)**، ويشتهر أيضًا باسم **(تاريخ الإمام الطبري)**.

كتب الإمام الطبري إذن موسوعته تلك العملاقة: (**تاريخ الرسل والملوك**)، فأجبر ذاكرة التاريخ علىٰ المثول أمامه؛ لتأخذ عنه وتلتقط علومه ومعارفه الفريدة، وبقيت أعماله الخالدة، ومصنَّفاته الباهرة منارة عالية شامخة يقصدها العلماء، ونبعًا ثريًّا ينهل منه رجال الفكر والمعرفة.

ولعلنا نسأل الآن: هذه الهمَّة العظيمة في العلم لا بد لها من حرص شديد علىٰ العلم حتىٰ تثمر هذه العلوم والمعارف العظيمة، فماذا فعل الطبري حتىٰ يصل إلىٰ هذه المنزلة من العلم؟ وهذا ما كان فعلًا، فقد كان الطبري حريصًا علىٰ العلم باذلًا فيه جميع وقته، وقد أفرَغَ حياتَه من المشاغل والملهِّيات، وأقبَلَ مكبًّا علىٰ العلم بجميعه، طلبًا له أولاً، واستملاءً من الشيوخ ورحلة إليهم، ثم تدريسًا وإملاءً وإقراءً وتعليمًا.

وكانت طريقته في حياته أن يجعل من وقته في يومه جزءًا للتأليف والكتابة، حتىٰ إنه واظَبَ علىٰ الكتابة أربعين سنة، وكان يكتب في كلِّ يوم أربعين ورقة، وهذا شيء كثير ما شاء الله، فبحسابها يظهر أنَّ مجموع ما كتبه أزيد من ٥٨٠ ألف ورقة، أي نحو ٨٠٠ مجلدًا كبيرًا!

ولا يُستغرب مثل هذا الكَمِّ، فإن الله بارك لأولئك العلماء في أوقاتهم، وأخَّر في أعمارهم، فكانوا بهذا من أسباب حفظ الله تعالىٰ لدينه، فأتمَّ الله حفظه بهم، وإقامته الحجة علىٰ الناس؛ ولذا كان علماء أمة الإسلام كأنبياء بني إسرائيل.

وكتاب (**تاريخ الرسل والملوك**) كتاب كبير في موضوعه، بدأ فيه الإمام الطبري من أخبار آدم عليه السلام ومن بعده إلىٰ أن وصل إلىٰ عصره، وتحديدًا إلىٰ نهاية سنة ٣٠٢هـ، وهو علىٰ طريقة الأخبار المرويَّة بالأسانيد في الغالب، وبالتسلسل الزمني للأحداث، والإمام حريص علىٰ إفادة القارئ فائدة أخرىٰ بعد الأخبار المسندة فهو يعلق عليها كثيرًا بتعليقات وتحليلات مفيدة، والكتاب أتمَّه الإمام الطبري قبل وفاته، وهو منشور معروف استفاد منه الناس علماء وعامة، في كلِّ زمان ومكان، وإلىٰ هذا الوقت، وسيبقىٰ مفيدهَم إلىٰ ما شاء الله تعالىٰ.

هذا ولم يشترط الطبري ثبوت جميع ما في كتابه وقد ذكر ذلك بنفسه في المقدمة، وعلىٰ الباحث والقارئ أن يدرس أسانيد الكتاب ويناقشها ويحللها، وهذا واجب مع كل كتب التاريخ.

اعتنىٰ العلماء بكتاب الإمام الطبري، فاختصره بعضهم، وعلَّقوا عليه، وناقشوه، ودرسوه، فزادوا من إفاداته، بل منهم من ترجم الكتاب إلىٰ اللغات الحية عبر عصور التاريخ كالفارسيَّة والتركيَّة والفرنسيَّة، أجزل الله تعالىٰ لهم ولإمامنا الطبري المثوبة.

وقد جاء بعد الإمام الطبري علماء ومؤرخون استفادوا من منهجه وأكملوا التاريخ علىٰ طريقته، وسجَّلوا لنا كلَّ شيء، فاستفِد من جهودهم ولا تترك هذه الثروة العظيمة التي تفيدنا في معرفة واقعنا وبناء مستقبلنا كثيرًا، لكن لتكن حريصًا في تناول كتب التاريخ علىٰ اختيار أفضلها، وهو ما كتبه الأئمة الذين ذكرنا بعضهم وأمثالهم، وعلىٰ أن تناقش وتحلِّل، ولتهتم بالاستفادة من ذلك كلِّه في تقييم الواقع، عن طريق مقارنة الأحداث والاستفادة من التكرار الحاصل في طبائع البشر ودوافعهم، فإنَّ الأحداث تتشابه والظروف تتماثل حتىٰ لتكاد تتطابق وتكون هي هي تمامًا، فمن قرأ التاريخ ووعاه سَهُلَ عليه أن يقيس الأمور ويعرف النتائج من البدايات وعرف النهايات من المقدِّمات.

وإن أحببت يومًا أن تكون مؤرِّخًا تدرس أحوال أمتك وأحوال العالم، وهذا عمل شريف منيف عالٍ غالٍ، فاحرص علىٰ أن تقدِّم لنا تجربة مبدعة في دراسة التاريخ، تلمُّ فيها بتجارب الأمم، وتنخُل فيها الأحداث، وتدقِّق الخطأ من الصواب، وتعالج من خلالها أخطاء مجتمعنا، وتفيدنا في تصحيح وجهتنا في السير نحو المستقبل، والمؤرِّخ المتميِّز -ولا أحب لك إلا أن تكون متميِّزًا ومبدعًا- يسعىٰ إلىٰ أن:

يقرأ في تعريف التاريخ وغاياته وفوائده.

يعرف ما كتب عن علم التاريخ ومصنفاته.

يقرأ في موضوعات: السيرة النبوية، حياة الصحابة، التواريخ المحلية للمدن والبلدان والدول، وطبقات العلماء.

يجمع في قراءته بين الكتابات التاريخية التراثية والمعاصرة، ويحرص علىٰ السفر بهدف التعرف إلىٰ الأماكن المهمَّة متىٰ وجد السبيل إلىٰ ذلك.

يلمَّ بطرف من كلِّ علم حتىٰ يستطيع فهم ما يقرؤه من أخبار ومعارف العلوم المختلفة في كتب التاريخ، خاصَّة علم العقيدة والحديث فالمؤرِّخ يحتاجهما كثيرًا.

يهتمَّ بدراسة اللغة العربيّة حتىٰ يكون فهمُه لما يقرأ مستقيمًا وتكون لغته فيما يؤدِّي سليمة، ولو توفَّر علىٰ تحسين مهاراته في القراءة والكتابة، حتىٰ يكون فصيحًا بليغًا وأديبًا رفيعًا ليكون له أسلوبه الخاص المميز في الكتابة فذلك أفضل، وإن استطاع إجادة لغات أخرىٰ تتصل بعلم التاريخ ودُوِّنت بها كتبه فليفعل فإن ذلك مهم ومفيد، كالفارسية والتركيَّة والإسبانيَّة مثلًا، فقد تُرجمت إليها علومٌ كثيرة من بلاد المشرق والمغرب الإسلامي ومن بلاد الأندلس وبلاد الأتراك، وشاعت دراسات عنها في تلك البلدان، والاطلاع عليها نافع ومفيد.

يكون علىٰ دراية بالعالم من حوله قراءة وسماعًا ومشاهدة، وبكافة الثقافات المختلفة؛ يتابعها ويتعرف إليها عن قرب ويرصد العادات والتقاليد والأعراف والملامح البارزة والمميزة لكل شعب أو جهة من العالم.

يدرس، ويحلِّل، ويناقش، ويطوِّر من قدراته علىٰ التفكير النقديِّ، ويستفيد من التاريخ للواقع، ولا يغرق في كتب التاريخ متناسيًا واقعه الذي يعيشه، ويقدِّم من خلال ذلك

إفادات لأخطاء أمته وإرشادًا لطريق سيرها الصحيح.

وأخيرًا يحصل علىٰ الدرجة العلميَّة المناسبة ليصبح مؤرِّخًا ناجحًا كقسم التاريخ أو الآثار أو الأنثروبولوجيا أو غيرها من الأقسام المتعلقة بالتاريخ، ويمارس الكتابة كثيرًا في المسائل التاريخيَّة ويعرض ما كتبه علىٰ المتخصصين ويعمل بمشورتهم.

وفقك الله لما يحبه ويرضاه وحقق أملك ومناك.

مُفسِّـــر

كلُّ العلوم مرتبطة بالقرآن والسنة، وعلىٰ قدر قربها منهما يكون فضلها، وما كان من العلوم أقرب كان في الفضل أكبر وأعظم، ولهذا كان علم التفسير أفضل العلوم علىٰ الإطلاق.

فبالتفسير نفهم كلام الله تبارك وتعالىٰ، ونعلم مراده، ويتيسر لنا العمل به بعدما علمناه وفهمناه، ونحن في ذلك نحتاج لعلماء التفسير الذين وفروا أنفسهم وأوقاتهم وجهودهم لشرحه وإيضاحه خدمة لكتاب الله.

وهذه الحاجة إلىٰ المفسرين ضروريَّة فإذا كان صحابة النبي ﷺ، وهم أصل العرب، وقد نزل القرآن بلغتهم، وفي زمانهم، احتاجوا إلىٰ أن يسألوا رسول ﷺ عن بعض الآيات التي لم يدركوا معناها فبينها لهم ﷺ، فنحن أولىٰ منهم؛ لبعدنا عن جو نزول القرآن، ولغته، والأحداث التي نزل فيها.

لما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ.

وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟

فقال رسول الله ﷺ: «**ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه**: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾»(١).

فبين لهم النبي ﷺ أن المقصود بالظلم في هذه الآية هو الشرك، وهو نوع من الظلم نعم، لكن ليس كل ظلم، إنما ظلم العبد نفسه بإشراك غير الله في حقِّه عليه فيستوجب سخط الله وغضبه.

ولهذا كانت أسئلة الصحابة للنبي ﷺ عن معاني القرآن في المواضع الملتبسة عليهم، مما لم يتبين لهم بلغتهم وما لم يظهر لهم معناه.

وكذلك سأل التابعون صحابة رسول الله ﷺ عما لم يعرفوه من معاني القرآن فبينها لهم الصحابة والتابعون هم الجيل الثاني من أبناء الصحابة رضي الله عنهم ومن عاش معهم ولم ير رسول الله ﷺ من المؤمنين.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

ومن هنا اشتغل عدد من الصحابة رضوان الله عليهم بتعليم الناس التفسير خاصة مثل عبد الله بن مسعود، وأُبَي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وغيرهم كثير.

وصار لهؤلاء الصحابة الأفاضل تلامذة من التابعين برعوا في التفسير ونبغوا فيه كمجاهد بن جبر، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

وبهذا تأسس علم التفسير وصارت له مدرسة كبيرة في العالم الإسلامي، وتنوَّعت دراسات العلماء فيه تنوعا كبيرا خدموا خلاله كتاب الله تعالىٰ خدمة عظيمة، ببيان معانيه وتوضيح ما فيه من فقه وقصص وحكم ومواعظ وعلوم أخرىٰ، والتفسير اليوم تخصُّصٌ عظيم من التخصصات الرئيسية في الجامعات الدارسة للشريعة وأصول الدين وعلومه.

ومن العلماء المعاصرين الذين خدموا كتاب الله تعالىٰ خدمة عظيمة ونشروا علم التفسير في الخطب والمواعظ، والتسجيلات والمرئيات، والكتب والدراسات، ونفع الله تبارك وتعالىٰ بعلمه في تفسير كتاب الله نفعًا عظيمًا:

فضيلة الشيخ الدكتور **عبد البديع أبو هاشم النُّوري** رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو صاحبُ أثرٍ عظيمٍ في الدعوة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ في القاهرة خاصَّة، ومصر عامَّة كتأثيرٍ مباشرٍ، وغيرها من بلدانِ العالمِ الإسلاميِّ كتأثير غير مباشر؛ من خلال طلابه الدارسين لديه من أنحاء العالم؛ في مسجده، وفي جامعة الأزهر.

نشأ الشيخ عبد البديع صغيرًا مع القرآن وفي بيئة قرآنية، فتخرَّج فيها مثالًا ونموذجًا يقتدىٰ به في أخلاقه ومعاملاته وسلوكه، فحفظ القرآن علىٰ يدي والده والتحق بالتعليم الأزهري وتدرَّج في مراحله المختلفة حتىٰ صار مدرسًا في كليَّة أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف، حيث كان في مراحل تعليمه جميعها متميزًا يحصل علىٰ المراكز الأولىٰ بين إخوانه الطلاب، وهذا التميُّز الدراسي قاده إلىٰ تميُّزٍ مستمرٍّ في طريق الدعوة إلىٰ الله، وأيضًا كان يستفيد من علمه فيعمل به ويطبِّقه في أعماله فاستفاد من أساتذته العلم والأخلاق، والمعرفة والآداب، والاطلاع العلمي والالتزام العمليَّ، وهذه القضية هي التي شغلت بال الشيخ وفكره وجعلها حلمه في المستقبل وأمله، وبذل لأجلها وقته وماله وجهده، قضية الأدب والسلوك، ويتحقق ذلك في نظره يوم أن يتحوَّل هذا الدين في

حياة المؤمنين به إلىٰ واقع ومنهج حياة.

ولهذا سخَّر الشيخ عبد البديع أبو هاشم جميع إمكاناته لأجل تحقيق هذا الهدف، في المسجد والمعهد والمكتبة والدورات والكتب والمجلات والجامعة وغيرها من المناشط الدعويَّة كالإمامة والخطب والدروس والفتاوىٰ.

وقد اختار الشيخ من بين الخطط التي تعين علىٰ تحقيق هذا الهدف العظيم خطة عظيمة مجرَّبة عبر التاريخ ألا وهي تفهيم القرآن وشرحه وتبيينه للناس وإشباع نفوسهم به حتىٰ يفيض علىٰ جوارحهم فلا يعملون إلا بالقرآن، ولا ترىٰ عيونهم إلا به ولا تسمع آذانهم إلا من خلاله ولا تسعىٰ أقدامهم ولا تتناول أيديهم إلا ما دعاهم إليه وحثهم عليه القرآن، وقد اجتهد الشيخ للوصول إلىٰ تحقيق خطته بكل الوسائل المتاحة، الخطبة والدرس والمقال والكتاب والإذاعة والقنوات الفضائيَّة، يدعو الناس أن يفهموا القرآن ويحصِّلوا الغاية من هذا الفهم، وعمل علىٰ تخريج أجيال تؤمن بأنَّ خلاصَ هذه الأمَّة من مشكلاتها أجمع هو في الاستمساك بالكتاب الكريم والاهتداء بهدي النبيِّ الأمين ﷺ.

ولقد كان الشيخ عبد البديع صاحبَ وجهٍ مُنيرٍ، وفكْرٍ هاديءٍ، وسلوكٍ قويمٍ، ومعشَرٍ طيِّبٍ، ولسانٍ عفٍّ، وأدبٍ جمٍّ، ودعوة يعمل علىٰ نجاحها من يحمل هذه الصفات يوفقه الله للوصول ولا شك إلىٰ هذا النجاح وهكذا كان.

ودعوة الشيخ ذات مساحة عريضة جدًّا في اهتماماتها ومجالاتها، ولئن اختار الشيخ أن يكون مقرَّها مسجد منطقته التي بها يقيم ويسكن، إلا أنه لم يكن يتأخر عن السفر والرحلة في الدعوة إلىٰ محافظات مصر المختلفة، وكان يستخدم في الدعوة أيضًا وسائل عرفته الجماهير العريضة من خلالها؛ فقد شارك في العمل الإذاعي من خلال بعض برامج إذاعة القرآن الكريم، وفي العمل الصحفي ببعض المقالات الصحفية، كما شارك في بعض الحلقات التليفزيونية والقنوات الفضائية التي سجَّل من خلالها حلقات برامجه الرائعة: (**وقفة مع آية**)، و(**هنا نزلت**) وغيرها، إلىٰ جانب مشاركاته في (**فتاوىٰ النَّاس**).

ولا تزال أعمال الشيخ الدعويَّة المتميِّزة نبراسًا يضيئ الطريقَ أمام الدعاة وطلاب العلم، في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية كـ (**سلسلة مقاصد سور القرآن الكريم**)، و(**سلسلة التفسير المجمل**)، و(**سلسلة أضواء البيان**)،

و(**سلسلة قصص قرآنية**)، و(**سلسلة آيات وأحاديث**)، و(**سلسلة بناء الفرد المسلم**) إلىٰ آخر الأعمال الصوتية والمرئية في الخطب العامة.. في الفقه والعقيدة وهموم الأمة ومعايشة الواقع، وغيرها، وهي معروفة متوفِّرة.

ونلمس من خلال هذه العناوين القرآنية اهتمام الشيخ رضوان الله عليه بإشاعة الدرس القرآني في النَّاس وترسيخ مفاهيمه فيهم بكل وسيلة متاحة وفي كل مناسبة وفرصة.

وللشيخ -نوَّر الله ضريحه- مصحفٌ مرتلٌ، وهو موجودٌ في موقع طريق الإسلام وموقعه الخاص وأماكن أخرىٰ من الشبكة العالمية، وقد رزق جمال الصوت في التلاوة مع ما منَّ الله به عليه من علمٍ زاده تدبُّرًا لما يقرأ.

وعرفت المكتبةُ الإسلاميَّةُ **الشيخَ الدكتورَ عبد البديع أبو هاشم**: كاتبًا وباحثًا متميِّزًا من خلال مؤلفاته: (**مبادئ علوم القرآن**)، و(**سحر البيان في أسلوب القرآن**)، و(**تفسير سورة الممتحنة تحليليًّا**)، و(**إمتاع الجنان بعلوم القرآن**)، و(**من آداب الأسرة والمجتمع في القرآن الكريم من خلال سورتي النور والتحريم**)، و(**تفسير سورة النازعات تحليليًّا**).

نعم كان لتخصُّص **فضيلة الشيخ الدكتور**: في التفسير أكاديميًّا أثرًا طبع مشاركاته الدعويَّة بطابع القرآن في كل مناسبة وآن؛ في خطبه ودروسه ودوراته ومحاضراته وحلقاته الإذاعيَّة والفضائية.

فالشيخ يتناول (**مقاصد القرآن الكريم**) علىٰ المنبر؛ سورةً سورةً، من أوله إلىٰ آخره.

ويتناول التفسيرَ الإجماليَّ للقرآن الكريم في (**سلسلة التفسير المجمل**) دروسًا؛ ليُعرِّف مستمعيه بما يحويه كلُّ جزء من أجزاء القرآن الكريم يتلوه في صلاة التراويح في رمضان.

ويتناول التفسير الموضوعي في الخطب والندوات والدروس والمحاضرات.

ويقف في برنامج (**تلفازيّ**) مع آيات هي من جوامع الكلم في القرآن الكريم، يهدف من ورائها إلىٰ ترسيخ مفهوم أو تصحيح تصوُّر أو بناء سلوك، في سلسلته: (**وقفة مع آية**).

ويقرِّب علمَ أسباب النزول إلىٰ النَّاس ليعيشوا أحوال الصحابة وقت نزول القرآن الكريم ويتعرَّفوا علىٰ العصر والظرف الذي نزل فيه، من خلال برنامجه: (**هنا نزلت**).

ويقدِّم القرآن للنَّاس علاجًا ربَّانيًّا وشفاءً إلهيًّا من خلال خطبه: (**سلسلة الاستشفاء بالقرآن**).

وهكذا ارتبط الشيخ بالقرآن الكريم وربط به دعوته، فأفنىٰ عمره كلَّه في خدمة كتاب الله تعليمًا وتفهيمًا وتربيةً للنَّاس عليه، وكان مثالًا للدأب في ذلك، والحرص عليه بكلِّ ما آتاه الله من قوَّة..

فكان لذلك عظيم الأثر في توثيق صلة المستمعين إليه -وهم كثر- بالقرآن الكريم حفظًا وتدبُّرًا، مع الإشارة إلىٰ كافَّة العلوم من خلال إشارات القرآن الكريم المحيطة بكلِّ شيء: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وكان في ذلك مفسِّرًا علىٰ طراز الأوَّلين، ولا غرو فقد كان أوَّل تفسير وقع له وأفاد منه في قراءته الأولية ثم في خطبه وكلماته الأولىٰ هو (**تفسير القرآن العظيم**) للحافظ ابن كثير، مع ربطه مشكلات العصر بحلول القرآن، وتوقيع النصوص علىٰ الأحوال، مع تقريب للأفهام وضرب للأمثال، في منهجٍ سلفيٍّ وأسلوبٍ عصريٍّ، كان له عظيم الأثر في سامعيه، وتركٌ بصمته فيهم.

فاللهم احشره مع الصديقين والنبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، واجعله من أهلك وخاصَّتك واسلك بنا مسلكه في القرآن(١).

وهكذا يبارك الله آثار أهل التفسير وإن قصرت أعمارهم، لأن بركة كتاب الله وخدمته ليس لها منتهىٰ، كما أنه ليس لفضلهم وخيريتهم منتهىٰ، فإن حلمت يومًا أن تكون مفسرًا وأرجو الله أن يبلِّغك أملك، فاحرص علىٰ أن:

تحفظ كتاب الله تعالىٰ، وتجوِّده علىٰ شيخ متقن، وتبدأ مبكرًا في دراسة القراءات القرآنيَّة، وتحيط بعلوم القرآن ومنها أصول التفسير.

تدرس قدرًا كبيرًا من كلِّ العلوم الشرعية والعربيَّة والتجريبيَّة حتىٰ تصل إلىٰ المستوىٰ الذي يؤهِّلك لفهم ودراسة كتاب الله تعالىٰ.

تهتم بقراءة كتب التفسير علىٰ اختلاف أنواعها، وأزمان تأليفها، ومناهج أصحابها.

---

(١) اقرأ في سيرة الشيخ مقدمة كتاب: نور البيان في مقاصد سور القرآن، للدكتور عبد البديع أبو هاشم، بتحقيقي، دار المازري، تونس.

تلتحق بإحدىٰ الكليَّات أو المنصَّات الشرعيَّة المهتمة ببناء وإعداد المفسِّر.

تفرِّغ نفسك لتأمل كتاب الله وتعطيه الأولويَّة من بين اهتماماتك، بمراجعة حفظ، وإتقان درس، ودوام تدبُّر، وإدمان معرفة لأقوال أهل العلم فيه.

تبدع في الربط بين القرآن والعصر، وتوجد لمشكلات الواقع حلولها من كتاب الله تعالىٰ، وهي فيه وافرة، لكنها بحاجة إلىٰ غوَّاص ماهر، يتوفَّر علىٰ استخراجها وإفادة النَّاس منها.

تبدع في إيصال هدايات القرآن، من حيث الأسلوب، والوسيلة، وما يلزم مراعاته من أحوال المدعوين عربًا وغيرهم، مسلمين وغيرهم، علىٰ اختلاف ثقافاتهم وأعرافهم ولغاتهم وأمزجتهم.

وفقك الله لما يحبُّه ويرضاه، ورزقك حسن الفهم وأجلاه.

خليفـــة

رئاسة دولة مسلمة من أعظم المناصب في تحصيل النفع للمسلمين في الدنيا والآخرة، وللقائم به ومن يعاونونه من الأجر والثواب ما لا يقدِّره إلا الله ﷻ، فتصوَّر أنَّ عبادة العبَّاد وعلم العلماء وعمل العاملين بالخير في ظلِّ حكومة مسلمة عادلة، وأمن عامٍّ، وتشجيع علىٰ الطاعات، يصبُّ في ميزان هذه الحكومة ورئيسها الحسنات صبًّا؛ لأنهم سبب إلىٰ كلِّ هذا، ولهذا اعتنىٰ الإسلام بتأسيس الدول وحثَّ عليها ورغَّب في تنصيب من يقوم بأمر المسلمين ويرعىٰ شئونهم..

فينص علماء المسلمين علىٰ أنَّ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين لأنه لا قيام للدين إلا بها.

إن جهود الدعاة ومساعي المصلحين ونتاج المفكرين وتضحيات العلماء تعود خائبة في الغالب إذا لم تكن لهم دولة تظللهم بسمائها وتقلهم بأرضها وتفيء عليهم ظلالها.

إن هذه الجهود والمساعي إن فرض لها أن تؤثر في غياب الدولة المسلمة فإن تأثيرها بلا ريب سيكون ضعيفًا جدًّا، وهذا بالمقارنة بخطوة واحدة يقوم بها حاكم مسلم في دولة

مسلمة من مثل سنِّ قانون أو إصدار توجيه يفعل ما تفعله هذه الجهود وتلك التضحيات كلها..

وبمثل هذا القانون من حاكم لا يخشىٰ الله تعالىٰ يهدم في لحظة واحدة ما بناه المصلحون في مئات السنين.

ولهذا كان دعوة الإسلام صريحة في وجوب سعي المؤمنين إلىٰ إقامة دولة تحمل راية الإسلام وتشيع في أبنائها منهجه وتحمي المؤمنين به من غوائل الفساد وشرور المفسدين.

وقد سعىٰ النبي ﷺ بنفسه إلىٰ إقامة دولة إسلاميَّة في مرحلة مبكرة من تاريخ الإسلام، ولما لم يستطع إقامتها في المرحلة الأولىٰ من الدعوة في مكة أو الطائف، هاجر إلىٰ المدينة المنورة وأقام الدولة هناك، إيمانًا منه ﷺ بضرورة وجود دولة للإسلام تحمل رسالته وترفع رايته وتسعىٰ بدعوته، ويخدم المسلمون من خلالها دين الله في أنفسهم وهم آمنون مطمئنين، وفي غيرهم؛ بدعوتهم إلىٰ الإسلام وضمهم إليهم ليعيشوا في أمان وسلام.

وفي وجوب إقامة الدولة المسلمة نقرأ قول الله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

وقول النبي ﷺ: «**ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية**»(١).

وقوله ﷺ: «**لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمَّروا عليهم أحدهم**»(٢).

إنَّها شعيرة إسلاميَّة في درجة الوجوب والفرضيَّة إذن، وكيف لا، والدولة المسلمة هي التي ستقوم علىٰ تحكيم شرع الله، وتطبيق منهجه، وإقامة دينه، فكثير من هذه الشريعة وهذا المنهج والدين لا سبيل إلىٰ تطبيقه وتفعيله إلا من خلال دولة مسلمة حريصة علىٰ العمل بكتاب الله تعالىٰ وسنة رسول الله ﷺ.

والحاكم المسلم الذي يقوم بهذا كله من تطبيق الدين وحمايته ورعاية المؤمنين به وتأمينهم؛ له الأجر العظيم علىٰ ذلك كله، ولمن عاونه وساعده في ذلك من الأجر

(١) رواه مسلم (١٨٥١).

(٢) رواه أحمد (٦٦٤٧)، وحسن محققو المسند.

بقدر مساعدته وجهده معه.

روىٰ الإمام مسلم في (**صحيحه**)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالىٰ عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** عَزَّوَجَلَّ، **وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(١).

فهذا الحديث يبين لنا فضيلة الإمام العادل الذي يلي أمر المسلمين فيحكم فيهم بما أمر الله تعالىٰ ويحسن في ولايته ورئاسته عليهم.

قام علىٰ رأس الدولة الإسلاميَّة في كلِّ زمان ومكان خلفاء كرام، وملوك عظام، وسلاطين ورؤساء قدروا هذا المنصب حق قدره، وقاموا بحقه، وأدوا الذي عليهم لله تعالىٰ فيه، كالخلفاء الأربعة: **أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب** رضي الله عنهم أجمعين، **والوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد، وألب أرسلان، ومحمد الفاتح، والسلطان**

(١) رواه أحمد (٦٤٨٥)، ومسلم (١٨٢٧).

عبد الحميد، وغيرهم كثير علىٰ مدار التاريخ.

وفي هذه السطور القليلة نستعرض شيئًا من سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز.

لكن لماذا نختار عمر بن عبد العزيز بالذات؟

لقد كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز علىٰ رأس ١٠٠ سنة من بداية الإسلام، وكانت قد حدثت قبله بعض المفاسد والمظالم فيسَّر الله علىٰ يديه زوالها وصلاح أمر الحكم والمسلمين، والعجيب أنَّ هذا حدث في سنتين فقط هي كل مدة حكمه، ففي معرفة سيرته فوائد عظيمة، نتعرَّف من خلالها كيف استطاع في هذه المدة القصيرة تغيير الأمور؟ وبأية وسيلة استطاع ذلك؟ وما هي المعارضات التي واجهها؟

لقد كانت سيرة عمر مثالاً عظيمًا في عدله، وزهده، وحُسن خلقه، وكان حكَمًا، مقسطًا، وإمامًا عادلاً، يقول الحق ولا يخشىٰ إلا الله.

وكان أول ما ظهر من رشده وفضله: حرصه علىٰ العلم، ورغبته في الأدب، فقد ولي أبوه مصر من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان، فلما تجهز لينتقل إليها أراد أن يأخذ

ابنه عمر معه، فقال له عمر: يا أبتِ أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك؟

قال: وما هو؟ قال: تُرحِّلني إلىٰ المدينة فأقعد إلىٰ فقهائها، وأتأدب بآدابهم.

وكان رأيه نعم الرأي فعند ذلك أرسله أبوه إلىٰ المدينة، وأرسل معه الخدام، فقعد مع علماء وشيوخ الحرم، وتجنب شبابهم، وما زال هذا دأبه حتىٰ اشتهر ذكره.

وقد كان عمر بن عبد العزيز عابدًا حسن العبادة، متبعًا للسنَّة، حسن الصلاة عظيم الخشوع فيها، فكان يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود، وكان يسبِّح في الركوع والسجود عشراً عشراً، حتىٰ إنَّ أنس بن مالك رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺكان يصلي وراءه وهو بالمدينة فقال: ما صليتُ وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتىٰ يعني عمر بن عبد العزيز.

وشهد له كثير من أشياخه بالعلم والفضل والأدب.

ولما ولي المدينة النبويَّة وصار أميرها كان من أحسن الناس معاشرة، وأعدلهم سيرة، وكان إذا وقع له أمر مشكل

جمع فقهاء المدينة عليه، وقد عين عشرة منهم، لا يقطع أمراً بدونهم جميعًا أو من حضر منهم، وهذا يدلُّ علىٰ توقيره للعلم والتزامه بمنهج الله تعالىٰ في حكمه.

وحين أكرمه الله تعالىٰ بالخلافة بعد موت الخليفة سليمان بن عبد الملك أعرض عن مراكب الخلافة وسكنىٰ دارها وزهد في متع الدنيا وانصرف إلىٰ شئون المسلمين يرعاها ويصلحها وخطب الناس أول ما ولي فقال في خطبته: أيها الناس، إنَّ لي نَفْسًا تواقة لا تُعطَىٰ شيئًا إلا تاقت إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، وإني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي إلىٰ ما هو أعلىٰ منها، وهي الجنة، فأعينوني عليها، يرحمكم الله.

ثم بيَّن للنَّاس طريقته في الحكم وحثهم علىٰ معاونته فقال: أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، وإني لست بقاضٍ ولكني منفِّذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إنَّ الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا إنَّ الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عَزَّوَجَلَّ، وإني لست بخير من أحد منكم، ولكنني أثقلكم حِملاً، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا هل أَسْمعتُ؟

وبدأ عمر من أول يوم في رحلة الإصلاح فرد المظالم، وصرف إلىٰ كل ذي حق حقَّه، وكان مناديه في كل يوم ينادي:

أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامىٰ؟ حتىٰ أغنىٰ كلًّا من هؤلاء، موارد الدولة أغنتهم وكفتهم، وهي والله في كل دولة كافية مغنية، فليست بالقليلة، يكفي أن يمسك الحاكم يده ويرفع أيدي السارقين ويمنع الناهبين فيغرق الناس في الرخاء والرفاهية ويعيشون في سعة ونعيم، وهذا ما فعله الخليفة الراشد عمر.

كانت مدة خلافة عمر بن عبد العزيز: سنتين، وخمسة أشهر، وأربعة أيام، وهي وإن كانت قليلة في العدد فإنها كانت كثيرة في النتائج والآثار، ولقد اعتمد الخليفة العظيم خطة في الإصلاح وإحياء الدين في النَّاس من شأنها تحقيق ما يصبو إليه من هدف عظيم، خلاصة هذه الخطة هي أن يحيي كلَّ يوم سُنَّة ويميت بدعة، أن يخطو بالنَّاس خطوة إلىٰ الخير والصواب ويبعد بهم خطوة عن الشرور والأخطاء، وقد تميَّزت خلافته بعدة مميِّزات، منها:

معرفة مسئوليته: فهو يرىٰ أن واجب الحاكم هو القيام بحقوق الناس، والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة؛ لأن الخليفة ما هو إلا أجيرٌ عند الأمة، وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة، وقد أحبَّ الاستزادة في فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة، فكتب إلىٰ الإمام الحسن البصري يسأله عن ذلك، فلما جاءه جواب الحسن التزم بما فيه وسعىٰ علىٰ هدي منه.

ردُّ المظالم: وقد بدأ عمر في رد المظالم بنفسه، فنظر إلىٰ ما في يديه من أرض أو متاع، فخرج منه حتىٰ نظر إلىٰ فص خاتم في يده، فقال: (هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب)، فخرج منه، وقد بلغ به حرصه علىٰ التثبت أنه نزع حليَّ سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، ثم ردَّ جميع المظالم التي حدثت قبل زمانه ولم يسمح بوقوع مثلها في مدة خلافته.

عزل جميع الولاة الظالمين: لما ولي الخلافة عمد إلىٰ جميع الولاة والحكام الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، وولَّىٰ غيرهم ممن يشهد له أولو الفضل بالعلم والفهم والعدل

وحسن السيرة والقوة والأمانة.

العمل بالشورىٰ: وهذا واضح جدًّا في خطبته التي خطبها في بداية عهده، ولقد اهتم بتفعيل مبدأ الشورىٰ هذا طوال مدة خلافته، وكان يقول: إنَّ المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي، ولا يُفقد معهما حزم.

نشر العلم بين الرعية: حرص عمر علىٰ نشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة.

وقد ورد عنه أنه قال في إحدىٰ خطبه: إنَّ للإسلام حدوداً وشرائع وسننًا، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلأن أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا علىٰ صحبتكم بحريص.

قضىٰ عمر بن عبد العزيز مدة خلافته ذات الثلاثين شهرًا، أو تقلُّ، يعمل بكتاب الله وسنَّة رسوله، يقضي بالحق ويحكم بالشورىٰ ويسير بالعدل، فنعم الناس وأمنوا، وبارك الله عيشهم فكفاهم وأغدق عليهم من نعمه حتىٰ كان الغني يخرج بصدقته فلا يجد فقيرًا يأخذها منه؛ لأن الخليفة قد كفىٰ النَّاس!

وهكذا العمل بدين الله تبارك وتعالىٰ وتحكيم كتابه وسنة نبيه ﷺ بركة كلُّه، كما قال الله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

وبعد هذه الحياة القصيرة زمنًا الحافلة بالخير مضمونًا أسلم الخليفة روحه إلىٰ بارئها ورحل إلىٰ الله[1]، رحم الله عمر، ومن عاش عيش عمر، وحكم حكم عمر، وسلك الله بنا سبيله مع حاكم يتقي الله فينا ويعدل بيننا ويحكم بشرعه لنا وعلينا.

(١) انظر: عمر بن عبد العزيز: معالم التجديد والإصلاح الراشدي علىٰ منهاج النبوة، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر.

وزيـــــر

أكرم الله تعالىٰ أمة الإسلام خلال تاريخها الطويل بعدد من الدول والحكومات حملت رايتها وسعت بدعوتها وطافت بها العالم من أقصاه إلىٰ أقصاه تصون معتقدها وتدافع عن شريعتها وتحمي المؤمنين بها، ومن هذه الدول دولة السلاجقة التي عرفت سلاطين ووزراء عظامًا، وقد برع وزراء كثيرون في الدول الإسلاميَّة المتعاقبة وكان لهم أثرًا بالغًا وبصمة واضحة فيما ولوا من شئونها، يذكرهم التاريخ ويثني عليهم النَّاس بالخير، ومن هؤلاء الوزراء: **أبو سلمة الخلال، ويحيىٰ بن خالد البرمكي، والفضل بن سهل، وابن العميد، وأبو الفضل ابن حنزابة، وابن حزم الأندلسي، والمنصور بن أبي عامر، ويحيىٰ بن محمد بن هبيرة، وصاعد بن مخلد، وأرغون الدوادار**، وغيرهم كثير.

والحضارة الإسلامية الأندلسية هي المثال الحقيقي الذي احتذت الأمم الحالية أثره في مسألة تقسيم الوزارات، فقد تمَّ في فترة مبكرة من تاريخها بجعل وزير للمالية، وآخر للشئون الخارجية، وآخر للعدل، وآخر للدفاع والأمن القومي، ثم وجود رئيس للوزراء يُسَمَّىٰ بالحاجب،

ووجود دار يجتمعون فيها كرئاسة مجلس الوزراء، وهذا كله من المشهور المعروف اليوم في جميع دول العالم وإنما اقتبسته الدول من دولة الإسلام في الأندلس.

وقد كان دور الوزير في الدولة الإسلاميَّة دورًا مهمًّا في القيام بشئون الدولة، حيث يأتي دور الوزير بعد دور الخليفة أو السلطان مباشرة، بل ربما مُنح الوزير السلطة المطلقة فأصبح بيده الأمر والنهي في الدولة، وقد اتخذ النبي ﷺ وزراء ومستشارين في حكمه دولة الإسلام الأولىٰ في المدينة، وكذلك خلفاؤه الراشدون ومن بعدهم، وإن لم يُسمُّوا باسم الوزير والمستشار، لكنهم يقومون بأعمالهم، وفي بدايات الدولة العباسيَّة نشأت الوزارة وأصبح لها قواعد وأسس ثابتة، فقد اتخذ الخليفة العباسيُّ الأوَّل الوزارة وأصبح الوزير يسمىٰ وزيرًا، ومنها انتشرت في ديار الإسلام، وبسبب اتساع الدولة الإسلامية، واتساع حاجياتها، وتعدد أجناسها، كثرت مهام الوزير وارتفعت مكانته، واتخذ كاتبًا ومعاونين لتدويل أعماله وأوامره.

كان الوزراء في الدولة الإسلاميَّة بجانب فطانتهم علماء متعمِّقين في دراسة الفقه والأحكام الشرعيَّة، إذ كان من

أعمالهم الجلوس للقضاء، والفصل في المظالم، والنظر في أعمال الولاة، إضافة إلىٰ مهارات خاصة تصلح لقيادة المجتمع والقيام بوظائف الوزارة منها: العلم بأمور السياسة، والعلم بأمور الحرب، والعلم بأمور الزكاة والخراج، وقيادة الجيش والقدرة علىٰ تجهيزه.

وكان الخلفاء العباسيون يُمعنون في البحث والتحرِّي عن أفضل الوزراء، فهذا الخليفة العباسي المأمون يضع مجموعة من المعايير لاختيار وزير له فيقول: إنِّي التمستُ لأموري رجلاً جامعًا لخصال الخير، ذا عفَّةٍ في خلائقه واستقامةٍ في طرائقه، قد هذَّبتْهُ الآداب وأحكمته التَّجارِب، إن اؤتمن علىٰ الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مهمَّات الأمور نهض فيها، يُسكته الحلم، ويُنطقه العلم، وتكفيه اللَّحظة، وتغنيه اللَّمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابْتُلِيَ بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترقُّ قلوب الرِّجال بخلابة لسانه وحسن بيانه.

ومن الوزراء الأوفياء في الحضارة الإسلامية، الذين جمعوا بين دهاء السياسة وأخلاق الدين، وكان لهم دور كبير

في مسيرة الحضارة الإسلامية: **الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق وزير دولة السلاجقة.**

ولنشأته ونبوغه قصة عجيبة، يقولون: إنه كان هناك ثلاثة من الأصدقاء يدرسون العلم معًا، هم: نظام الملك، وحسن الصباح، وعمر الخيام، وفي يوم أقسم هؤلاء الثلاثة علىٰ أن يتساعدوا فيما بينهم في حال نجاح أحدهم في حياته وتولِّيه لمنصب رفيع، وظلوا يذكرون بعضهم بهذا العهد كل حين حتىٰ لا ينسىٰ.

وكان النجاح والنبوغ من نصيب نظام الملك، الذي أصبح من خيرة وزراء الحضارة الإسلامية، إن لم يكن أفضلهم بعد عهد الصحابة، حيث شغل منصب الوزير في دولة السلاجقة العظيمة، وقد تذكر عهده فبعث إلىٰ حسن الصباح وعمر الخيام صاحبيه ليعاون كلًّا منهما علىٰ الوصول إلىٰ وظيفة تليق به ويحسن القيام بها فقد كانا ذكيين فطنين، لكن وصل إلىٰ علم نظام الملك أن حسن الصباح انحرف عن طريق الصواب وانتمىٰ إلىٰ فرقة من الفرق الضالَّة وقد حاول نظام الملك مع صاحبه ومع أتباعه في هذه الفرقة للرجوع إلىٰ الحق بنصحه ومناقشة العلماء له، فلم يرجع، ومن هنا لم يعنه

نظام الملك بشيء ولم يساعده، وأما عمر الخيام فإنه قد رحل إلىٰ الوزير نظام الملك ولقي عنده الحفاوة والإكرام وعرفه بالسلطان (**ملك شاه**) ونوَّه عنده بعلمه، وفعلًا لبَّىٰ السلطان جميع طلبات الخيَّام فقد كان ينوي بناء مرصد ضخم لتطوير علم الفلك وإجراء كثير من الأبحاث العلميَّة في علم الفضاء.

وصل نظام الملك مكانة عظيمة رفيعة في دولة السلاجقة وأصبح أعظم وزرائها بل أعظم وزراء الإسلام تقريبًا، وقد وصل إلىٰ هذه المكانة لأن والده عُني به في صغره فنشَّأه تنشئة حسنة ولقنه العلم وذهب به إلىٰ أفاضل العلماء يدرِّسونه ويؤدِّبونه، فعلمه العربية، وحفظه القرآن الكريم وهو في سن الحادية عشرة، وألمَّ بالفقه علىٰ مذهب الإمام الشافعي، وسمع الحديث، ودرس الآداب التي تتعلق بأمور الحكم.

ثم اشتغل نظام الملك في مطلع شبابه كاتبًا لدىٰ بعض الولاة، ثم تعرف إلىٰ والد السلطان ألب أرسلان فظهر له منه النصح والموهبة فسلمه إلىٰ ولده ألب أرسلان وقال له: (اتخذه والدًا ولا تخالفه فيما يشير به)، وكانت هذه بداية نظام الملك الحقيقيَّة في الوزارة لدولة السلاجقة العظيمة، حيث

وزر للجد والأب ولابنه السلطان ملكشاه من بعده.

كان نظام الملك محبًّا للعلم، مُعظِّمًا للعلماء، فأنشأ أثناء وزارته المدارس والمعاهد العلميَّة في ربوع الدولة الإسلاميَّة ورغَّب في العلم، ورغَّب الشيوخ والطلاب في الالتحاق بها، وطلب لها العلماء والأئمة من أنحاء العالم الإسلاميِّ، كالجويني والغزالي والقشيري، وأبي إسحاق الشيرازي، وعبد القادر الجيلاني، وأدرَّ علىٰ الطلبة الصِّلات والأموال، وأملىٰ الحديث بنفسه عليهم، وبهذا وغيره بَعُد صيته جدًّا في العالم الإسلامي فلم يكن أشهر وزراء السلاجقة فحسب، بل هو واحد من أشهر الوزراء في تاريخ الإسلام.

ومن مدارس العلم التي أنشأها نظام الملك المدرسة النظامية في بغداد، وكان مع توليه لأمر الوزارة يذهب بين الحين والآخر إلىٰ هذه المدرسة لتدريس مادة الحديث الشريف، يقول ابن الأثير: دخل نظام الملك إلىٰ المدرسة النظامية، وجلس في خزانة الكتب، وطالع فيها كتبًا، وسمع الناس عليه بالمدرسة جزء حديث، وأملىٰ جزءًا آخر.

وكان من تعظيم نظام الملك للعلم والعلماء وتأدبه

بحسن الأخلاق مع حملة العلم وأهله أنه إذا دخل عليه أحد العلماء يقوم إليه، ويُجلسه في مكانه، ويجلس هو بين يديه، فإذا قيل له في هذا، قال: إن هذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي، وما أنا فيه من الظلم، فتنكسر نفسي لذلك، وأرجع عن كثير مما أنا فيه.

ولم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا وداعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما وساعيًا في نشرهما وتعميمهما فحسب بل كان نظام الملك إلىٰ جانب حبه للعلم والعلماء وزيرًا عالمًا درَّس الحديث، وكتب في السياسة.

ألَّف كتابًا سمَّاه (**سياست نامه**) أو (**سير الملوك**)، وقد ألَّفه لسلطان السلاجقة ملكشاه بن محمد عام ٤٧٩هـ.. بين فيه أبرز السبل لقيادة الدولة إلىٰ النجاح، وتحدث فيه عن تنظيم الحكم، وعن ضرورة قيام العدل، وأهميَّة تنظيم أمور الدولة والاستقطاع، وتنظيم الإدارة والجيش، وتاريخ العلاقة بين السلطات المركزية في عصر السلاجقة، مبينًا فيه نظم الملوك والأمراء السابقين في الحكم، لتتأسَّىٰ بهم دولة السلاجقة في أحوالها وشئونها الإدارية والسياسية، وفي ذلك يقول

نظام الملك: (لذا عمدتُ إلىٰ درج وشرح كل ما كنتُ أعرفه، أو رأيته، أو خبرته، من تجارِب في حياتي، أو تَعَلَّمته من أساتذتي في الموضوع في هذا الكتاب في خمسين فصلاً)، وقد استفاد من هذا الكتاب كلُّ الخلفاء والملوك والوزراء الذين جاءوا من بعده، وهو من أهم الكتب في السياسة ونظام إدارة الدول.

ويظهر لنا من خلال سيرة الوزير العظيم نظام الملك أنه اعتمد في إدارته الوزارة علىٰ الأسس التالية:

سعة العلم وغزارة المعرفة: فقد كان يعرف علوم عصره الدينية والسياسية وظهر أثر ذلك في تدريسه وتأليفه وسياسته.

تقريب الرجال الأكفاء الصالحين منه: وبمثل هذا استطاع أن ينجز الأعمال التي أوكلت إليه والمهام التي أسندت إليه فأحسن في وزارته كما لم يحسن وزير قبله أو بعده.

بناء كفاءته الإداريَّة ومقدرته العالية في إدارة البلاد من خلال الاستفادة من تجارب الأمم السابقة: وهذا يدل عليه كتابه فإنه يظهر كم كان اطلاعه علىٰ التجارب السابقة له متنوعًا متعددًا مفيدًا.

نشر الوعي في الشعب: ويظهر هذا في استقدامه العلماء وإكرامهم وبناء المدارس العلميَّة لهم ليدرسوا فيها الناس العلم وينشروا فيهم الخير.

العدل بين الرعيَّة وإعطاء كل ذي حق حقه: ولأجل هذا كان محبوبًا من رعيته وقد امتد خيره إلىٰ خارج حدود الدولة السلجوقيَّة حتىٰ وصل إلىٰ بغداد وما حولها من المدن، يكرم علماءها وطلابها وعبادها وزهادها ويتقرب من كل الناس يقضي حوائجهم ويكفل ضعيفهم، حتىٰ عرف له الناس فضله وأحبوه.

العمل علىٰ كفاية المحتاجين والفقراء، والإنفاق علىٰ القرَّاء والعلماء والعباد والزهاد: وهذا واضح فيما سبق.

وقد كان من نتائج هذه السياسة الرفيعة من قبل الوزير نظام الملك في إدارة البلاد أن ازدهرت الدولة وبلغت ذروة المجد، حيث أصبحت أكبر قوة في العالم آنذاك، بل صنع البيئة الحاضنة للجيل الذي برز فيه الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي حرر القدس من أسر اليهود.

وهكذا عاش الوزير نظام الملك بعلمه وعدله ورحمته في الناس خير معيشة سعد بالوزارة وسعد الناس معه في ظلها،

وفي يوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥ هـ، خرج الوزير مع السلطان ملكشاه من أصبهان قاصدين بغداد، فاجتاز في بعض طريقه بقرية بالقرب من نهاوند، وحان وقت الإفطار فصلوا الْمغرب فِي هَذِه اللَّيْلَة وَجلسَ علىٰ السماط وَعِنْده خلق كثير من الْفُقَهَاء والقراء والصوفية وَأَصْحَاب الْحَوَائِج، فَجعل نظام الملك يذكر شرف الْمَكَان الَّذِي نزلوه من أَرض نهاوند وأخبار الْوَقْعَة الَّتِي كَانَت بِهِ بَين الْفرس وَالْمُسْلِمين فِي زمَان أَمِير الْمُؤمنِينَ عمر بن الْخطاب رَضِي الله تَعَالَىٰ عَنهُ، وَمن اسْتشْهد هُنَاكَ من الْأَعْيَان وَيَقُول: هذا الموضع قُتل فيه خلق كثير من الصحابة زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين فطوبىٰ لمن كان معهم(١).

وقدَّر الله تعالىٰ للوزير نظام الملك أن يموت في هذا المكان، كما تمنَّىٰ فرحمه الله رحمة واسعة.

(١) انظر في سيرة نظام الملك، كتاب: نظام الملك.. ملامح وإنجازات، أحمد تمام.

قـــاض

وظيفة القاضي من أهمِّ الوظائف في الدول عامة وفي الدولة الإسلاميَّة خاصَّة، لما يمثله ذلك المنصب من رسالة تتمثل في نشر العدل والقسط بين النَّاس، فمهمة فض الخصومات والنزاعات بين الناس ليست مهمة سهلة، وإنما هي المهمة الأَوْلىٰ يُصرف كل اهتمام وعناية إليها، فبها ينصلح مجموع الناس وحال البلاد أو يفسد ويضطرب.

ونظام القضاء في الإسلام من أروع النظم المكتوبة والمدوَّنة التي عرفتها البشريَّة في القضاء، فقد أولىٰ القرآن الكريم والسنة النبويَّة النظام القضائي عناية خاصَّة، ليكون صالحًا كرسالة الإسلام لكلِّ زمان ومكان، ولكي يكون جامعًا كمظلَّة الإسلام لكلِّ الملل والفرق والأجناس والطبقات والألوان.

ومن هنا عالج القضاء في الإسلام قضايا تتعلق بالمسلمين وغيرهم، في بدو أو حضر، عرب وعجم، فقراء وأغنياء، ولم تفرِّق منظومته في العدالة بين متحاكمين ولم تفاضل بين متخاصمين بل كان جميع الخصوم أمامها سواء،

حتىٰ تُظهر الأدلة والبيِّنات من له الحق ومن عليه الحق.

ويحفظ لنا التاريخ روائع القضاء في الحكم بالعدل حتىٰ بين رئيس الدولة المسلمة وواحد من رعيَّته وربما لم يكن هذا الخصم الذي يخاصم حاكم الدولة مسلمًا، فتجري القضيَّة بين يدي القاضي كما تجري غيرها من القضايا بين كلِّ المتخاصمين، وفي هذا السياق وقائع كثيرة شهيرة، منها القضية التي كانت بين يهودي وأمير المؤمنين علي وحكم فيها **القاضي شريح بن الحارث**، فهذا يهوديٌّ يسرق درع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان عليٌّ خليفة المسلمين فقاضاه عليٌّ إلىٰ قاضيه شريح، ولما كان موعد القضيَّة حضر عليٌّ مع اليهودي أمام القاضي المسلم ونادىٰ القاضي علىٰ علي بكنيته قائلًا: يا أبا الحسن، ونادىٰ علىٰ اليهودي باسمه دون أن يُكنِّيه، فغضب عليٌّ رضي الله عنه وقال للقاضي: إما أن تُكنِّي الخصمَين معًا أو تدع تكنيتهما معًا.

ليست هذه هي القضية محل الدعوىٰ، ولكن أبا الحسن رضي الله عنه، أراد أن تكون العدالة شاملة جامعة لكل صغير وكبير يحدث في قاعة المحكمة من قول أو فعل، وإن بدا بعض ذلك لا علاقة له بالقضيَّة الأساس، وقد امتثل القاضي العدل لهذه

الروح العظيمة وكان هو الآخر عظيمًا في حكمه وقضائه في القضيَّة.

ثم سأل شريحٌ أمير المؤمنين عن قضيته فقال علي: الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريحٌ اليهوديَّ عمَّا قاله عليٌّ فرد اليهودي بخبث ودهاء معهودين قائلًا: الدرع درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب!

فقال شريح لعلي: هل من بينة؟

فقال علي: صدقت يا شريح، ما لي بينةٌ!

كان موقف شريح رائعًا كموقف أمير المؤمنين علي، لقد سأل المدعي عن بينته علىٰ دعواه، فلما لم يجد لديه بينة حكم بالدرع لليهودي، فأخذ اليهودي الدرع ومضىٰ وهو يحدث نفسه قائلًا: أمير المؤمنين يقاضيني إلىٰ قاضيه فيقضي قاضيه عليه، إنَّ هذه والله لأخلاق أنبياء، ثم عاد فقال: يا أمير المؤمنين الدرع درعك سقطت من علىٰ بعيرك فأخذتها، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فيرد عليه علي قائلًا: أما وقد أسلمت فالدرع هدية منىٰ إليك.

هذا مثال وراءه أمثلة أخرىٰ كثيرة لا تحصىٰ تدل جميعها

علىٰ أنَّ نظام القضاء في الإسلام جاء أمنًا وحماية لكلِّ الناس علىٰ اختلاف مراتبهم ومناصبهم وطبقاتهم وأجناسهم وأديانهم، يعمل بميزان العدل وينشر الأمن ويوفِّر الحماية للجميع.

وقد عرف تاريخُ القضاء قضاةً عظماءَ اشتهر عنهم العلم والفضل والذكاء وأُثرت عنهم مفاخر لمنصب القضاء، من هؤلاء: عمر بن الخطاب، وعتَّاب بن أُسَيْد، ومعاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، وشريح بن الحارث، وإياس بن معاوية، وأحمد بن بديل، والمنذر بن سعيد، ونصر بن زياد، وابن عين الدولة، وبرهان الدين ابن جماعة، وعبد القادر عودة، وأحمد محمد شاكر، وغيرهم كثير.

ومن القضاة الذين ارتفع ذكرهم: القاضي صاري خضر جلبي، وكان قاضي إسلامبول في عهد السلطان العثماني محمد الفاتح، وذاع صيته في أرجاء الدولة العثمانية وكان مشهورًا بالعدل وعُرف بقصته مع أحد المعمارين الروم والسلطان محمد الفاتح، وذلك أن السلطان محمد الفاتح أمر ببناء جامع في مدينة اسطنبول، وكلف أحد المعماريين الروم واسمه اسبلانتي بالإشراف علىٰ بناء هذا الجامع، وكان من

بين أوامر السلطان: أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر، وأن تكون هذه الأعمدة مرتفعة؛ ليبدو الجامع فخمًا، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري.

ولكن هذا المعماري، لسبب من الأسباب، أمر بقص الأعمدة وتقصيرها دون أن يخبر السلطان، وعندما سمع الفاتح بذلك استشاط غضبه وأمر بقطع يد المعماري الرومي، ومع أنه ندم علىٰ ذلك وأراد أن يرجع عنه، إلا أنَّ ندمه كان بعد فوات الأوان، لقد قطع الجنود يد المعماري بأمر السلطان.

لم يسكت المعماري عن الظلم الذي لحق به، بل راجع قاضي اسطنبول **ساري خضر جلبي**، واشتكىٰ إليه ما لحقه من ظلم من قبل السلطان محمد الفاتح، ويا له من رجل جريء شجاع حين يذهب يشكو الحاكم الذي يحكم البلد إلىٰ قاضي البلد، ألم يخف السلطان؟ ألم يرهب سطوته ويخف بأسه وغضبه، ما يمنعه إذ قطع يده أن يقطع رقبته، لكنه كان شجاعًا، والحقيقة التي لا مرية فيها أنَّ مصدر شجاعته ليست جرأته فقط وإنما معرفته بأمرين اثنين شجعاه علىٰ ما سعىٰ فيه: **الأول**: عدل القاضي وإنصافه ولو كان أحد الخصمين السلطان، **وثانيهما**: خضوع السلطان لحكم الشرع وقبوله به

مهما كان، وهذا ما جرىٰ بالفعل.

لم يتردَّد القاضي في قبول هذه الشكوىٰ، بل أرسل من فوره رسولاً إلىٰ السلطان ليستدعيه في المثول أمامه في المحكمة، فالحق والعدل يجب أن يكونا فوق كل سلطان.

هناك وقف السلطان محمد الفاتح بجانب خصمه الرومي، وبعد أن سمع منهما القاضي فكر برهة ثم قال: حسب الأوامر الشرعية، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصاً منك!

ذهل المعماري الرومي وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي والذي ما كان يدور بخلده لا من قريب ولا من بعيد، فقد كان أقصىٰ ما يتوقعه أن يحكم القاضي له بتعويض مالي، أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية، الذي كانت أوربا ترتجف منه رعبًا، فهذا كان أمرًا وراء الخيال!

وبصوت ذاهل قال الرومي للقاضي: إنه يتنازل عن دعواه، وأن الذي كان يرجوه هو الحكم له بتعويض مالي فقط، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية لكل يوم،

طوال حياته؛ تعويضًا له عن الضرر البالغ الذي لحقه.

فماذا كان موقف السلطان وقد سمع حكم قاضيه؟ لم يعترض بل أذعن وقبل، وحين سمع كلام المدعي حمد الله وشكره وعرفانًا لجميل المعماري فقد قرَّر السلطان بمحض إرادته أن يعطيه عشرين قطعة نقدية بدلا عن عشر قطع لكل يوم تعبيرًا عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص وتعبيراً عن ندمه كذلك.

إنَّ القضاء في الإسلام يستمدُّ نظمه من عند الله تعالىٰ، ومن ثمَّ فهو يُطبَّق علىٰ جميع النَّاس سواسية، ولذلك كانت له طوال تاريخه مكانة عالية ودرجة رفيعة، تبوَّأها نتيجة لمميِّزاته العديدة ومنها: صلاحه، ونزاهته، واستقلاليته، وعدم خضوعه لأهواء الحكام، الأمر الذي أدَّي إلىٰ صلاح المجتمع المسلم، ونهوض الدولة وازدهارها، وقيام الحضارة الإسلاميَّة التي شارك في صناعتها شعوبها من كلِّ الأمم.

لقد كان القضاء في الإسلام مصدر سعادة وأمان عاش النـاس بسببه حياةً كريمة، وتحقق لهم خلالها الرخاء والاستقرار.

ولمن يتولَّىٰ وظيفة القضاء في الدولة الإسلاميَّة شروطًا أوضحتها الشريعة، من أهم هذه الشروط ما يلي:

الإسلام: وذلك لأنَّ القضاء ولاية، فلا تجوز ولاية الكافر علىٰ المسلم، والقاضي هنا ملزم بتطبيق الدين الإسلاميِّ، وهذا يتطلَّب الإيمان والخوف من الله تعالىٰ، لتطبيق الشريعة الإسلاميَّة بشكل صحيح دون الخروج عن أحكامها.

البلوغ: فالصبي لا يولىٰ القضاء، ولا يصح قضاؤه، وذلك لأنَّ القضاء يحتاج إلىٰ الفطنة، والرأي السديد، ورجاحة العقل، والقدرة علىٰ التمييز بين الأمور والقضايا المختلفة، وهذا ما لا يتوفر في الصبي، ولا يشترط في القاضي أن يكون كبيراً في السن، فالمقصود اجتماع الشروط المطلوبة في الولاية بعد البلوغ، ولا ضير إن كان في مقتبل العمر.

العقل: لا يجوز تعيين المجنون، أو المعتوه، أو ضعيف النظر، فهؤلاء لا يصح قضاؤهم لعدم قدرتهم علىٰ التمييز والبتِّ في القضايا علىٰ اختلاف أنواعها.

الذكورة: فلا يجوز تولية المرأة القضاء، فإذا وليت فولايتها باطلة، وقضاؤها باطل، فالقاضي يحتاج إلىٰ مخالطة

الرجال، والمرأة ممنوعة من ذلك.

العدالة: وتتمثل بالأمانة والمروءة، وتطبيق الفرائض والأركان التي شرعها الله.

الاجتهاد: والمتمثَّل بالقدرة على استنتاج الأحكام، واستنباطها من مصادر التشريع، وهذا الأمر يتطلّب الإلمام بالأحكام الواردة في القرآن الكريم والسنة بحيث يكون على معرفة تامة بها.

سلامة الحواس: العينين والأذنين والنطق وهكذا، فمثلاً لا يجوز تولية الأصم؛ لأنَّه لا يستطيع سماع كلام المتخاصمين، ولا الأعمى فهو لا يميِّز المدعي من المدعى عليه، ولا الشاهد من المشهود عليه أو له، ولا الأخرس لأنه لا يستطيع النطق بالحكم، أو إيصال ما يتوصل إليه من قرارات إلى ذوي الشأن.

وهذا كله من الإسلام حرصٌ على نظام العدل في القضاء حتى لا يقع بسبب فقده الخلط والاضطراب الذي يؤدي إلى ضياع الحقوق ووقوع الظلم والجور، مما يجعل الناس تفقد الثقة بالقضاء وأحكامه ويلجؤون إلى طرق أخرى غير

مشروعة يحصلون من خلالها علىٰ حقوقهم، وبذلك يفسد حال الدين والدولة معًا.

إنَّ النظام القضائي هو صمام أمان الدولة، يرفعها الله ويحميها ويصونها وينصرها بإقامة العدل بواسطته، فإذا انتشرت في ربوعها المظالم وعمت الرشاوىٰ وأُكلت الحقوق ومال الميزان، هوَت الدولة وهُزمت وهرمت وشابت.

ويختلف النظام القضائيُّ الإسلاميُّ عن كلِّ أنظمة القضاء الأخرىٰ في الشرائع أو القوانين، وهذا ما شهدت به الدنيا وسجلته كتب التاريخ وقامت علىٰ أساسه الحضارات ونهضت الأمم وشُيِّدت الدول الإسلاميَّة عبر العصور المختلفة وأيضًا علىٰ اختلاف مكانها وأجناسها وألوانها، نسأل الله أن يحيي فينا ذلك النظام وسائر نظم الإسلام الكامل الشامل، وأن يأخذ بأيدينا إلىٰ ديننا[١].

(١) انظر في القضاء في الإسلام: النظام القضائي في الفقه الإسلامي، د. محمد رأفت عثمان، دار البيان.

صحفيٌّ

الصحافة رسالة عظيمة، ومقوِّم مهمٌّ من مقوِّمات الدَّولة، لا غنىٰ عنها للتطور والتنمية، فهي منبر للتوجيه والتوعية، ومائدة للحوار والمناقشات، ومئذنة للأخبار والمعلومات، فيها يكتب الروَّاد والمفكِّرون آراءهم، ويدوِّنون رؤاهم ونظريَّاتهم، ويوضِّحون للمجتمعات السبل الصحيحة لحلِّ مشكلاتها وعلاج أدوائها.

والصحافة مهنة عمدتها جمع وتحليل الأخبار، والتحقق من مصداقيتها، وتقديمها للجمهور، سواءً كانت هذه الأخبار متعلقة بأحداث سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو رياضية أو اجتماعية أو غيرها، وذلك بغرض تأسيس رأي عام علىٰ وعي بالواقع المحيط، وحالة من الشفافية تضمن وجود رقابة شعبية فعالة علىٰ أداء السلطة الحاكمة والإدارات التابعة لها، فإن قامت بمهمتها تلك كانت رسالة، وأنعم بالصحافة حين كانت وتكون رسالة.

فلله كم من فكرة رائدة سرت بين النَّاس بسبب الصحافة، وكم من داء قتلته، وكم من علاج لأدواء وعلل قد

قدَّمته، وأجيال قد أعدت أفكارهم وبنت رؤاهم وأوضحت سبلهم وهدتهم رشدهم بما حوته وتضمَّنته.

وهذا كلُّه إذا قام عليها المخلصون من المفكِّرين والمثقفين الذين يحملون قضية عظيمة ويسعون إلىٰ هدف نبيل وينتمون إلىٰ طريق النور.

ولهذا التأثير العظيم للصحافة في الفكر والمجتمع، في الحاضر والمستقبل، في القرار والجمهور، كان من واجبات الشباب المسلم: المشاركة فيها، والنبوغ بين صفوف العاملين بها، وامتلاك المؤهلات للريادة والقيادة في وسائلها المختلفة.

وقد شهدت الصحافة تقدُّمًا كبيرًا في حضورها وتأثيرها بين النَّاس خلال العصر الحديث، وكان لازدهارها أثر عظيم في جذب أصحاب القضايا الكبيرة والأهداف النبيلة للعمل بها، فهذا السيد جمال الدين، والأستاذ الإمام محمد عبده، والسيد رشيد رضا، والزعيم مصطفىٰ كامل، والسيد عبد الرحمن الكواكبي، والأساتذة أحمد حسن الزيَّات، وعبد العزيز البشري، وعبد الله النديم، وعلي يوسف، وإبراهيم المويلحي، وغيرهم قد اشتغلوا بالصحافة، فأسسوا

الصحف والمجلات، وحرروا الموضوعات والمقالات، وشجَّعوا غيرهم من الكتاب وحملة الأقلام الحرَّة الواعية المناضلة علىٰ العمل بالصحافة.

ومن بين الصحفيين الكبار الذين أثرت مقالاتهم وكتاباتهم في المجتمع العربي والإسلامي في العصر الحديث، وما زالت آثار ذلك التأثير باقية، حتىٰ بعد مرور مئة عام علىٰ رحيل صاحبها الأستاذ الكبير **عبد الرحمن الكواكبي**.

كان الكواكبي صحفي من صحفيي الحق؛ لا يجامل علىٰ حسابه أحدًا، وكان من كُتَّاب الحريَّة؛ لا يداهن في الدعوة إليها أحدًا، يعارض الباطل في أي صورة، ويقوم ضدَّ الاستبداد أيًّا كان نوعه، ويناضل ضدَّ من يجور ويظلم في أيِّ منصب كان وعلىٰ أي كرسيٍّ جلس.

فمن هو الكواكبي؟ وما قصته مع الصحافة؟ وكيف حقق حلمه من خلالها؟

ولد المفكر المصلح الإسلامي العظيم عبد الرحمن الكواكبي في حلب عام ١٨٥٥م وتوفي عام ١٩٠٢م، فكان جملة ما عاشه في الحياة ٤٧ سنة فقط.

وخلال هذه الحياة القصيرة استطاع الكواكبي أن يترك آثارًا حركيَّة وفكريَّة تضعه ضمن أعلام مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي الحديثة التي دعت إلىٰ تجديد الدين الإسلامي لتتجدد به دنيا المسلمين.

وقد ولد الكواكبي في مدينة حلب لعائلة لها شأن كبير في المكانة والعلم، فتلقىٰ العلم في المدينة العظيمة التي تزدهر بالعلوم والفقهاء والعلماء، فدرس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبية التي تتبع نهج الشريعة في علومها، وكان يشرف عليها ويدرِّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء في حلب.

لم يكتفِ الكواكبي بالمعلومات التي تلقاها في المدارس، فأخذ في الاطلاع علىٰ كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي مخطوطات قديمة وحديثة، ومطبوعات أول عهد الطباعة في العالم، فاتسعت بذلك آفاقه واستطاع أن يطلع علىٰ علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم.

وعندما بلغ عبد الرحمن الكواكبي الثانية والعشرين من عمره الْتحق كمحرر بجريدة (**الفرات**)، وكانت جريدة رسمية تصدر في حلب.

ثم أسس هو وزميله السيد هشام العطار أول جريدة رسمية عربية خالصة وهي جريدة (**الشهباء**)، وكانت أول صحيفة تصدر باللغة العربية، وبسبب المقالات النقدية اللاذعة الموجهة ضد السلطات المحلِّية في حلب والعالميَّة في الامبراطوريَّة العثمانيَّة الواسعة أصدرت السلطات أوامرها بإغلاق هذه الصحيفة.

وأنشأ عبد الرحمن صحيفة أخرىٰ بعدها سماها صحيفة الاعتدال، لكنها أغلقت لنفس السبب بعد صدور بعض أعدادها، ولم تكن تلك آخر محاولات عبد الرحمن الكواكبي في إنشاء الصحف والمجلات، ذلك أنه سافر إلىٰ عدة بلاد، ثم استقرّ به المقام آخرًا في مصر وأنشأ بها العديد من المجلات ونشر خلالها بعض الكتب مثل كتاب: **أم القرىٰ**، وكتاب **طبائع الاستبداد** وغيرهما.

لقد كان الكواكبي يثق في قدرة الصحافة علىٰ التغيير والتأثير في المجتمع وتحرير وعيه وتصحيح وجهة سيره، فكان عنده ذلك الحرص علىٰ أن يقدِّم للناس صحافة بناءة نظيفة رشيدة مرشدة.

ذاع صيت الكواكبي في مصر، وكان من روَّاد الفكر فيها، وتتلمذ علىٰ يديه الكثيرون من أبنائها، مفكرين ومعلمين وكتاب وصحفيين واجتماعيين؛ حيث تنوَّعت جوانب مشاركته فشكل النوادي الإصلاحية، وأسس الجمعيات الخيرية التي تقوم بتوعية الناس، إلىٰ جانب تأليفه الكتب وتحريره المقالات في الصحف.

كان هدف الكواكبي هو دعوة المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات، حكامًا ومحكومين، فدعا الحكَّام إلىٰ التحلِّي بمكارم الأخلاق كالعدل والتسامح والإحسان والإحساس بالمسئولية والزهد في الحرام والترفع عن أموال الشعوب؛ لأنهم الموجهون للبشر، وحمَّل الحكومات المستبدة مسؤولية أدواء الشعوب وعللها، ودعا الشعوب إلىٰ الوعي بقيمتها والإيمان بحريتها والمطالبة بحقوقها.

وهكذا أمضىٰ الكواكبي سنين حياته مُصْلِحًا وداعيةً إلىٰ النهوض بالأمة العربية، والتقدم بثقافتها، ومقاومة استبداد الولاة والحكام، وإصلاح حال الشعوب، وضرورة نضالها للحصول علىٰ حقوقها والتمتع بثرواتها، والعودة إلىٰ فضائلها والتخلِّي عن عللها، وهذا هو لبُّ عمل الصحفي الحرِّ في كلِّ

زمان ومكان ما دام عفيف النفس نظيف اليد عتيق الفكر والعقل(١).

فإن حلمت أن تكون يومًا صحفيًّا، صاحب رسالة، وهكذا ينبغي أن تكون، فلا بد أن:

تكون في مستوىٰ ما نذرت قلمك ونفسك له، فتقف مع الحق وقيم الخير والعدل والصواب وأن تؤهل نفسك للقيام بها والتضحية من أجلها.

يكون دورك فاعلًا مؤثرًا في دفع المسيرة إلىٰ الطريق السالك القويم سياسة واقتصادًا واجتماعًا وثقافة ومن جميع المناحي التي تخدم المجتمع.

تكون ذكيًّا فطنًا واعيًا لما يجب أن يقال، ومتىٰ يقال، وكيف يقال.

تكون ملمًّا بما تحتاجه مهمتك واعيًا بما حولك، في الدول والشعوب، في العلوم والمعارف، في الماضي

(١) انظر في سيرة الكواكبي وحياته: عبد الرحمن الكواكبي.. شهيد الحرية ومجدد الإسلام، والأعمال الكاملة.. عبد الرحمن الكواكبىٰ، كلاهما للدكتور. محمد عمارة.

والحاضر، في الأهداف والوسائل، في الهجوم والدفاع.

تلتحق بكلية من الكليَّات التي يتخرَّج فيها الصحفيُّون وتتصل بأعلام وروَّاد هذه المهنة السامية، في التاريخ من خلال القراءة الواعية، وفي الحاضر من خلال متابعتهم والتواصل معهم والتعلم منهم حتىٰ تمارس مهنتك باحترافيَّة.

تعرف أن الصحافة رسالة، وأخلاق، وأمانة، ومصداقية، ونزاهة، والتزام، وحيادية وحفاظ علىٰ مقدرات الأمة ومصالح المجتمع.

وبهذا تكون صاحب رسالة تنويرية، غايتها النهوض بالمجتمع، وهدفها حمل قضاياه وهمومه، ولا يتحقق ذلك حتىٰ تكون لسان حال المجتمع ومرآته وممثل وجدانه.

مُحَـــدِّث

بعث الله تعالىٰ نبيّه محمدًا ﷺ وأيّده بالقرآن الكريم والسنَّة النبويَّة، كما قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنَّة النبويَّة المطهَّرة، وهذان هما مصدرا الإسلام العظيمين.

ومنزلة القرآن الكريم تأتي أولًا، وبعدها مباشرة منزلة السنَّة النبويَّة؛ لأنها أحيانًا توضح القرآن وتفصِّله، أو تبيِّن ما خفي من معانيه وتشرحه، أو تأتي بأحكام زائدة علىٰ ما في القرآن فتوجب أمرًا سكت القرآن عن إيجابه، أو تحرم أمرًا سكت القرآن عن تحريمه، وهذا النوع تشريع من رسول الله ﷺ، أذن الله له فيه، ويجب طاعته فيه ولا تحل معصيته، امتثالاً لقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وكما توفَّر العلماء علىٰ خدمة كتاب الله تعالىٰ تفسيرًا وتوضيحًا وتدريسًا وتفهيمًا فبينوا علومه وبثوا معارفه، كذلك خدم العلماء السنَّة النبويَّة طوال تاريخ الإسلام بخدمات عظيمة جليلة، بصفتها المصدر الثاني من مصادر الإسلام، وأقوال وأحوال رسوله ﷺ، فمنهم من دوَّنها وكتبها، ومنهم من استظهرها وحفظها، ومنهم من شرحها ووضحها، ومنهم من بيَّن ما هو منها وما ليس منها، فقد افترىٰ بعض النَّاس علىٰ رسول الله ﷺ أحاديث لم يقلها، فتصدَّىٰ العلماء العظام لهم وبينوا افتراءاتهم وفندوا مزاعمهم ونقَّوا أحاديث رسول الله ﷺ من أكاذيبهم.

وقد ذهل علماء المسلمين وغير المسلمين من الجهود الجبَّارة التي بذلها علماء السنة النبويَّة وأبدوا دهشتهم لدقة منهجهم وجودة عملهم وإتقانهم.

ويطلق علىٰ العلماء الذين قاموا بهذه المهامِّ وخدموا السنَّة النبويَّة بهذه الخدمات الجليلة اسم: المحدِّثون.

والمحدِّث هو من يشتغل بعلم الحديث رواية يعني من جهة السند عن الصحابي عن الرسول ﷺ، ودراية يعني من

جهة المعاني والشروح، ويطَّلع علىٰ الكثير من الروايات وأحوال رواتها، أمثال: الأئمة: مالك بن أنس، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد بن حنبل، وابن حجر العسقلاني وبدر الدين العيني، والسيوطي، والسندي، وأحمد شاكر، ومحمد ناصر الدين الألباني، ومحمد عبد اللطيف، وغيرهم من المحدِّثين السابقين والمعاصرين رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ومن المحدِّثين الذين أفنوا أعمارهم في سُنَّة رسول الله ﷺ فضيلة الشيخ العلامة **أحمد محمد شاكر** رحمه الله، وهو واحد من أبناء الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر، هؤلاء الأبناء الذين كانوا كلهم علماء قاموا علىٰ خدمة الدين وعلومه من جهات عديدة، في اللغة والأدب وفي الحديث والسنَّة.

ووالدهم الشيخ محمد شاكر: صاحب منزلة رفيعة في العلم وقد رشح ليكون شيخًا للأزهر لكنه رفض تحمُّل مسئولية هذا المنصب واكتفىٰ بخدمة الإسلام من خلال منصب وكيل الأزهر إيثارًا للبعد عن مزالق السياسة وعوائق المجاملات والعلاقات لا سيما وأن الشيخ كان قويًّا في الحق

والصدع برأيه لا يخشىٰ في الحق لوم أحد، وله قصة عجيبة تظهر ذلك، صلىٰ مرَّة مع الملك في يوم جمعة وكان خطيب المسجد فصيحًا متكلمًا مقتدراً، فأراد هذا الخطيب أن يمدح الملك لتكريمه الأديب (طه حسين) علىٰ مشاركاته في الأدب من خلال الجامعة والمقالات، وكان طه هذا أعمىٰ.

فقال الخطيب يمدح الملك: (جاءه الأعمىٰ، فما عبس بوجهه وما تولىٰ!)، فما كان من الشيخ محمد شاكر إلا أن قام بعد الصلاة، يعلن للناس أن صلاتهم باطلة، وعليهم إعادتها لأن الخطيب كفر بما شتم رسول الله ﷺ وبيَّن للنَّاس أنه لا يصحُّ من الخطيب تفضيل فعل الملك علىٰ فعل الرسول ﷺ وأن ذلك القول ذمٌّ منه للرسول ﷺ، وذمُّ الرَّسول كفرٌ، ما كان للخطيب أن يقول ذلك الكلام الذي ينم عن جهل كبير بما يحمله من تنقص للنبي ﷺ، وأما إذ قاله فكان لا بد من أن يبين الشيخ محمد شاكر خطأه، فلما فعل هل ندم الخطيب وراجع نفسه بالتوبة واعتذر؟ كلا بل كابر وجحد وعاند معتمدًا علىٰ قربه من ذوي المنصب والجاه، وأما الناس فقد أذعنوا لكلام الشيخ محمد شاكر وقاموا فصلوا مرة ثانية.

ولم يدع الله لهذا المجرم جرمه في الدنيا، قبل أن يجزيه

جزاءه في الأخرىٰ، يقول الشيخ أحمد محمد شاكر: أقسمُ بالله لقد رأيته بعيني رأسي، بعد بضع سنين، وبعد أن كان عاليًا منتفخًا، مستعِزًّا بمَن لاذ بهم من العظماء والكبراء رأيته مهينًا ذليلاً، يعمل خادمًا علىٰ باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقىٰ نعال المصلين يحفظها في ذلة وصغار، حتىٰ لقد خجلت أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقة عليه، فما كان موضعًا للشفقة، ولا شماتة فيه؛ فالرجل النبيل يسمو علىٰ الشماتة، ولكن لما رأيت من عبرة وعظة.

عن ولد هذا العالم الكبير الجليل صاحب هذه الحادثة نتكلم الآن، عن أحمد محمد شاكر الذي انتهت إليه رئاسة الحديث في مصر والعالم الإسلاميِّ، من هذا الأب العالم الذي ينتمي إلىٰ أسرة شريفة ينتهي نسبها إلىٰ سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وفي الأزهر تلقىٰ أحمد تعليمه ولقي أفاضل العلماء من مصر وغيرها من بلاد الإسلام، وبجوار هذا بدأ دراسة السنة النبوية أثناء طلب العلم، فسمع كثيرًا وقرأ كثيرًا، ودرس أخبار العلماء والأئمة، ونظر في أقوالهم وأدلتهم، ولم يتعصب

لواحد منهم، ولم يحد عن طريق الحق فيما بدا له.

ومن عجائب ما وقع له في هذا الشأن أنَّ الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي شيخ الجامع الأزهر كان يفتي بجواز الأخذ بالحساب الفلكي في إثبات أوائل الشهور العربية بديلًا عن الرؤية الشخصية، فعارضه فريق من العلماء كان في طليعتهم الشيخ محمد شاكر، وكان ابنه أحمد ينتصر له ويرىٰ رأيه، وكتب عدة مقالات تؤيد الرؤية الشخصية، ثم بدا له بعد التحقيق وتناول المسألة في تأن وروية وإعمال للفكر ما يخالف وجهة نظر والده، فأخرج رسالة صغيرة في حياة أبيه بعنوان: (**أوائل الشهور العربية هل يجوز شرعًا إثباتها بالحساب الفلكي**)، رجع فيها إلىٰ رأي المراغي، وأعلن في صراحة أنه كان علىٰ صواب، فقال: كان والدي وكنت أنا وبعض إخواني ممن خالف الأستاذ الأكبر في رأيه، ولكني أصرح الآن أنه كان علىٰ صواب، وأزيد عليه وجوب إثبات الأهلة بالحساب في كل الوقت إلا لمن استعصىٰ عليه العلم.

بعد حصول الشيخ أحمد شاكر علىٰ شهادة العالمية سنة ١٩١٧م عين مدرسًا بمعهد عثمان ماهر لمدة أربعة أشهر، ثم انتقل إلىٰ القضاء الشرعي وتدرج في مناصبه حتىٰ صار قاضيًا

بالمحاكم الشرعية ثم عضوا بالمحكمة العليا، وأحيل إلىٰ التقاعد في ١٩٥٢م ببلوغه سن الستين، ليتفرغ بعدها لأعماله العلمية حتىٰ وفاته.

وهو أحد الأفذاذ القلائل الذين درسوا الحديث النبوي في زماننا دراسة وافية، قائمة علىٰ الأصول التي اشتهر بها أئمة هذا العلم في القرون الأولىٰ، وكان له اجتهاد عُرف به في جرح الرجال وتعديلهم، أفضىٰ به إلىٰ مخالفة القدماء والمحدثين، ونصر رأيه بالأدلة البينة، فصار له مذهب معروف بين المشتغلين بهذا العلم علىٰ قلتهم.

ومن أعمال الشيخ في خدمة السنَّة النبويَّة وتراث الإسلام: **تحقيق جامع الترمذي، تحقيق وشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، ومعه معالم السنن للخطابي، وتهذيب ابن قيم الجوزية، والباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، وشرح ألفية السيوطي في علم الحديث،** -وطبع الكتاب في مجلدين- **وأخيرًا تحقيق كتاب الرسالة،** وقد جاء تحقيقًا علميًّا نافعًا ينم عن غزارة علمه وسعة

اطلاعه، وهو أول كتاب عُرف به الشيخ أحمد شاكر، وغير هذا من الكتب التي حققها كثير.

ولم يكن علم الحديث هو مجال نبوغه فقط بل إنه برز في كثير من العلوم الإسلامية، فهو إلىٰ جوار كونه محدثًا: فقيه ومحقق وأديب وناقد(١).

والاشتغال بخدمة حديث رسول الله ﷺ بركة في الدين والدنيا، فإذا كنت تحلم أن تكون محدِّثًا ماهرًا.

ولا بد أن تطلب المهارة فيما تريد من عمل لا أن تكون علىٰ أي شكل والسلام، فاتبع الخطوات التالية:

اهتم، بعد حفظك القرآن الكريم، بحفظ السنَّة النبويَّة، الأربعين النووية، رياض الصالحين، بلوغ المرام، الصحيحين.. إلخ.

ادرس كتب مصطلح الحديث علىٰ أيدي العلماء المتخصصين في علم الحديث.

---

(١) انظر في سيرة أحمد محمد شاكر: من العلماء الرواد في رحاب الأزهر، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص ٥٧٦ - ٥٨٠.

التحق بإحدىٰ الكليَّات المعنيَّة، أو قسم من أقسامها، بدراسة السنَّة النبويَّة.

اقرأ آثار العلماء في هذا العلم المبارك.

اتبع طريقتهم وتابع إرشاداتهم واصنع مثلهم.

أبدع في دراساتك للسنة النبوية بالحرص علىٰ الاشتغال بما تركه العلماء المتقدِّمون، ولم يلتفت إليه العلماء المعاصرون، وكم ترك الأول للآخر، ومن هذا مشروع جمع السنَّة النبويَّة في كتاب واحد، فقد تمناه الأوائل ووضع منهج العمل فيه الأواخر، ولم يأت أحد من العلماء فيه بتطبيق شامل كامل، فاجعل ذلك نصب عينيك، وهدفًا لديك.

يسَّرك الله لخدمة سنَّة نبيه وحبيبه وجمعك بصاحبها ﷺ في الجنة.

قُبـــطان

تمتلـئ الـدنيا بالتجمُّعـات المائيـة الكثيـرة؛ محيطـات، وبحار، وأنهار، وخلجان، وقنوات، بحسب اتساعها وضيقها، وتمثِّل المسطَّحات المائيَّة بالنسبة إلىٰ الأرض مساحة ٧١٪، بينما نسبة اليابسة إلىٰ الأرض ٢٩٪ فقط، ومعنىٰ ذلك أن ثلثي مساحة الأرض مياه وثلثها الباقي يابسة، وهـذا يبيِّن لنا أهميَّة المسطحات المائيَّة، بل إنَّ أهمية البحار تدخل في النَّواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية.

ولهذا نجد القرآن الكريم ينبِّهنا إلىٰ مكانة المياه ودورها في الحيـاة، ويحـدِّثنا عـن أنواعهـا وأشـكالها وحقـائق كثيـرة حولهـا، ومـن تتبـع كلمـات: البحـر والنهـر والمـاء ومـا هـو بمعانيها وجدها كثيرة في القرآن الكريم، بل إنَّ القرآن يجعل الماء أصل الحياة ومقوِّم استمرار عيش الأحياء فيها، وذلك في قولـه تعـالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبيـاء: ٣٠]، ومعنىٰ هذا أنه لولا الماء الذي خلقه الله لنا لما كان علىٰ وجه الأرض حياة، ومن المذهل أن نعرف بأنَّه في كل ثانيةٍ تمضي يهطل من السماء إلىٰ الأرض علىٰ مستوىٰ الكرة الأرضية ١٦مليون طن من الماء، وهي إشارة إلىٰ لطف الله تعالىٰ

بمخلوقاته لإغاثتهم بما يحتاجونه وعلىٰ الصورة التي تنفعهم ولا تهلكهم، فلو أنَّ هذا الماء هوىٰ علىٰ الأرض بشكلٍ متَّصل مجمَّع لأتلف كلَّ شيء، ولحطَّم كلَّ شيء، ولأنهىٰ الحياة، ولكنه ينزل علىٰ شكل قطراتٍ صغيرةٍ فيها لطفٌ، وفيها رحمةٌ، وفيها حكمة.

إنَّ كلَّ مخلوقٍ قد دخل الماء عنصراً أساسًا في خلقه وفي تكوينه، وهذه دعوة للعلماء الذين يبحثون في الماء وفي الأرض وفي الفلك وفي السموات والآفاق وهنا وهنا، ابحثوا عن الماء كيف كان سببًا لكل حيٍ ليحيا بإذن الله تعالىٰ، هذا إعجاز علميٌّ عظيم يبلغه العلماء أو يقصرون عنه، كله بإذن الله، لكن ابحثوا لتعلموا أنَّ القرآن حقٌّ وأنَّه من عند الله فعلاً.

وهي إشارة كذلك إلىٰ أهمية السيطرة علىٰ منابع ومسطحات الماء لتأمين الحياة سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، بل لضمانة استمرار الحياة نفسها، ومنع من لا دين له ولا أخلاق من العدوان علىٰ غيره من المسلمين والمسالمين.

ومن هنا اهتم المسلمون اهتمامًا عظيمًا بالمياه، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يمخرون عباب الماء ويحاولون

اقتحام مجاله في العسكريَّة والحروب، وفي التجارة والرحلات السلميَّة، حتىٰ كانت لهم السيطرة يومًا علىٰ بحار الدنيا، وعُرف من البحَّارة المسلمون أعلام عظام خاضوا البحار وكانوا عليها أمراء وملوكًا.

ومن معجزات سيدنا رسول الله ﷺ أنَّه تنبأ بغزو أمته في البحر قبل حصوله وأخبر به قبل وقوعه، فقد كان رسول الله ﷺ يذهب إلىٰ مسجد قباء يصلي فيه صباح يوم السبت، وكان في عودته يذهب إلىٰ بيت الرُّمَيْصاء بنت ملحان رضي الله عنها فتطعمُه، فذهب إليها يومًا فأطعمته فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ يضحك، فقالت له: ما يضحكك يا رسول الله؟

فقال: «**ناس من أمتي رأيتهم في منامي، مجاهدين في سبيل الله، يركبون ظهر هذا البحر مثل الملوك علىٰ الأَسِرَّة**».

فقالت الرميصاء: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله، فدعا رسول الله ﷺ لها، ثم وضع رأسه فنام مرة أخرىٰ، ثم استيقظ يضحك، فقالت له: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله يركبون ظهر هذا البحر مثل الملوك علىٰ الأَسِرَّة**».

فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**أنت من الأوَّلين**»(١).

وقد استجاب الله تعالىٰ لدعاء رسوله ﷺ، فقد ركبت الرميصاء رضي الله عنها البحر في زمان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، مع قوم خرجوا للجهاد في سبيل الله، وماتت في هذه الغزوة شهيدة في سبيل الله، فكان موتها في هذه الغزوة البحريَّة معجزة لرسول الله ﷺ.

ومن أمراء البحار الكرام الذين جاهدوا في سبيل الله في البحار فملكوها ورفعوا راية الإسلام في ربوع الدنيا بسبب من ذلك: القبطان العظيم: خير الدين بَرْبروس وأخوه عَرُّوج بَرْبروس.

كان خير الدين بَرْبروس قائد الأساطيل البحريَّة العثمانية وكان مجاهدًا بحريًّا كبيرًا، وهو أول قائد عام لجميع الأساطيل البحريَّة للخلافة العثمانية، وُلد خير الدين بربروس حوالي سنة ١٤٧٢م، وكان أخوه عرُّوج أكبر منه بقليل، ولهما أخوان آخران، وأبوهم بحار اسْمُه نور الله يعقوب أغا،

(١) رواه مسلم (٣٦٤٦).

وأسرتهم من الفرسان العثمانيين.

عَمِل خير الدين مع أشقائه بالتجارة في مطلع شبابهم، وكان له سفينة يتاجر بها بين سالونيك وأجريبوز؛ فتعرضت سفينتهم لاعتداء بعض الفرسان الصليبيين، ووقع أخوه الأكبر عروج في أسرهم مدة ثلاث سنوات إلىٰ أن تمكَّن خير الدين من تهريبه إلىٰ إيطاليا ومنها إلىٰ مصر، وبعد هذه الحادثة ترك عرُّوج وبربروس العمل التجاريَّ وقرروا أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين في سبيل الله ضدَّ الصليبيين طالما أنهم يهاجمون التجار الأبرياء من المسلمين، فلم تكن حادثة اعتدائهم علىٰ سفينة خير الدين وإخوته نادرة من نوادرهم بل كانوا يفعلون الشيء نفسه مع كل سفن المسلمين، ولهذا قرَّر خير الدين وأخوه معاقبتهم علىٰ فعلهم هذا بدفاعهم عن المسلمين في كل مكان وتأمينهم ضدَّ شرورهم.

امتاز خير الدين بالقوَّة والدَّهاء والإقدام والشجاعة، وكان ذا صلابة في الجهاد وقناة لا تلين، إلىٰ جانب تصميم وعزم لا يتطرق إليهما أيُّ ضعف، ونظرة صائبة خاطفة لا تكاد تخطئ التقدير ولا التدبير، وجرأة واندفاع لا يباليان بالصعوبات، ولا يحسبان حساباً للعقبات، ودقة في السياسة،

وتدبير الملك، وعبقرية ترافقه ساعة الحرب وساعة السلم، فكان أبرع مَنْ ركب البحر وقاد السفن.

إنه كما وصفه المؤرخ التونسي ابن المضياف فقال: خير الدين هذا من رجال الدنيا، بل والآخرة، فهو كما قال بعض الأدباء: خير الدين والدنيا.

وقد ظهرت كفاءة خير الدين حينما تولىٰ القيادة بعد استشهاد أخيه القائد عروج حيث صمم علىٰ الثأر لدم أخيه المجاهد رحمه اللّه الذي قتله الإسبان في اعتدائهم علىٰ تونس، فجهَّز خير الدين سفنه واتجه بها مباشرةً إلىٰ تونس ليدمر السفن الإسبانية الصليبيَّة هناك، وبالفعل وصلها واستطاع أن يحرر تونس من الصليبيين وأذنابهم، ثم توجه بجنوده العثمانيين الأتراك فحرر الجزائر، وجزر البليار الإسبانية وضمها إلىٰ بقية المدن التي معه بعد أن دمَّر الأسطول الإسباني أيضًا هناك. ولمَّا سمع بولس الثالث بابا روما بانتصارات هذا القائد المسلم أعلن من الفاتيكان حالة النفير العام في جميع أرجاء أوروبا النصرانيَّة، فتكوَّن تحالف صليبي ضخم من ٦٠٠ سفينة تحمل نحو ستين ألف جندي،

تحت قيادة قائد بحري أسطوري هو أعظم قائد بحري عرفته أوروبا في القرون الوسطىٰ وهو **أندريا دوريا**، بهدف إنهاء الإسلام كلية في البحر المتوسط، وقد استعد خير الدين لهذه الحملة علىٰ قلة ما كان معه من السفن والجنود وقتها، حيث تألفت القوات العثمانية الإسلامية من (٢٢) سفينة تحمل اثنين وعشرين ألف جندي فقط.

وفي ٤ من جمادىٰ الأولىٰ عام ٤٥٩ هـ/ ٢٨ من سبتمبر ١٥٣٨م التقىٰ الأسطولان في معركة **بروزة**، وبالرغم من تفوق الصليبيين بالعدة والعتاد، إلا أن القائد خير الدين بربروس قائد بحرية المسلمين انتصر انتصارًا كبيرًا، ودمَّر خير الدين بربروس الأسطول الأوروبي المتحالف تدميرًا كليًّا، فهرب أسطورتهم المزيفة **أندريا دوريا** من ميدان المعركة التي لم تستمر أكثر من خمس ساعات، ولم تذكر كتب التاريخ شيئًا عنه بعد تلك الهزيمة المخزية، أما خير الدين وجنوده وفتوحاتهم فقد كانوا ملء سمع الدنيا وبصر العالم، وكانت هذه المعركة يومًا من أيام الله في التاريخ وظهر تأييد الله فيها للمسلمين بقوَّة ومعونة وتوفيق!

قدم خير الدين خلال تاريخه بطولات عظيمة، منها

المهمة المستحيلة التي أوكلها إليه السلطان العثماني سليم الأول، فبعد سقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس طلب السلطان سليم الأول إلىٰ خير الدين إنقاذ مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش الإسبانية التي كانت تذيق المسلمين الويلات مُحاوِلةً تنصيرهم، فقرر السلطان إسناد هذه المهمة إلىٰ القائد خير الدين لينقل هؤلاء المسلمين المستضعفين من الأندلس إلىٰ أراضٍ آمنة، وهي مهمة خطيرة يتحدىٰ القائم بها كل الطاقات البشريَّة المتاحة ويتصرف بالحيل والأعاجيب وما يشبه المستحيل.

وقَبِل خير الدين التحدي ووضع خطته العظيمة العجيبة، فأبحر من أقصىٰ الشرق في تركيا إلىٰ أقصىٰ الغرب في الأندلس وحارب الجيوش الصليبية مجتمعة وكانت تشترك فيها جيوش إسبانية وبرتغالية وإيطالية وجيوش أخرىٰ، واستطاع خير الدين اختراق كلِّ تلك الحصون البحرية والتمكن من الرسو الآمن في إحدىٰ المدن الأندلسية المحتلة من قبل القشتاليين الصليبيين، وهناك دمر الحامية البحرية الإسبانية لتلك المدينة وشلَّ قوة العدو الدفاعية وتحول إلىٰ اليابسة وخاض حرب شوارع ضد القوات البرية الإسبانية في

أزقة تلك المدينة وشوارعها.

واستطاع خير الدين تحرير المدينة الأندلسية من جديد ورفع راية الإسلام العثمانية علىٰ قلاعها ومباغتة الكنائس بصورة مفاجئة للحيلولة دون هروب القساوسة الكاثوليك الذين يعرفون أماكن التعذيب السرِّية، ثم بحث في جميع أبنية الكنائس المظلمة بشكل فوري قبل أن يتم تهريب المعذبين المسلمين والتمكن من العثور علىٰ الغرف السرية التي يعذب فيها المسلمون، وبالفعل قام بتحرير المسلمين مع مراعاة عدم نقلهم من الأقبية إلىٰ الخارج حتىٰ غياب الشمس لتجنب إصابتهم بالعمىٰ نتيجة عدم رؤيتهم للشمس منذ سنين، ثم عمل علىٰ نقل هؤلاء الأسرىٰ المسلمين إلىٰ السفن الإسلامية مع تجنب تعرُّض جلودهم الهزيلة للتمزق أثناء الحمل، وتمَّ إخلاء المدينة علىٰ وجه السرعة، ومن العجيب أن هذه العملية منذ الرسو حتىٰ الإقلاع لم تستغرق أكثر من ٦ ساعات، وكان هذا الاستعجال لتجنب الاشتباك مع قوات المدد الآتية للعدو من المدن المجاورة.

بعدها تمكن خير الدين من الإبحار عائدًا تحت جنح الظلام والتمكُّن من شلِّ حركة العدو البحريَّة أثناء رحلة

العودة، وكانت عودته نحو الجزائر، بهدف إسعاف الأسرىٰ بأسرع وقت من جهة وخداع بحرية العدو من جهة أخرىٰ، وقد انتهت هذه المهمة بسلام كما خطط لها خير الدين علىٰ نحو أبهر الدنيا، والأغرب أنها نجحت أكثر من مرة، وأنقذ خير الدين وإخوته الآلاف من مسلمي الأندلس! وذاع صيت هذا القائد الإسلامي في بحار الدنيا، وتناقلت شوارع أوروبا الكاثوليكية قصصاً متناثرة عن بطولة بحَّار عثماني يبحر كالشبح المرعب فلا يستطيع أحد صده.

فهل قرأت أو سمعت عن مهمة أغرب من هذه؟!

إن تاريخ أمتنا مليء بالبطولات فوق كل أرض وفي كل وقت وزمان، كان هناك من أبطال الأمة وقادتها وعلماؤها وربانيوها من يكتبون تاريخنا بمداد من الذهب علىٰ صفحات من النور، يسطرون أروع التضحيات والبطولات، يسطرونها بدمائهم وأرواحهم وأشلائهم، وإنَّ في الأمة من أمثال هؤلاء من إذا أتيحت لهم الفرصة للتضحية في سبيل إيمانهم وأوطانهم لما تخلفوا خطوة واحدة.

وقد قاد خير الدين حروبه بالإيمان، وحقق فوزًا عظيمًا

بالإسلام، واتصف بالأخلاق الكريمة كالوفاء والإخلاص وإنكار الذات، وكان علىٰ أتم الاستعداد للتضحية، وأُثر عنه الصدق، وتمثلت فيه الشجاعة بكل أشكالها.

ويحفظ لنا التاريخ من نماذج إيمان خير الدين أن شارلكان ملك إسبانيا وإمبراطور الرومان بعث يقول له: يجب ألا تنسىٰ أن الإسبان لم يُخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويك إلياس وعروج، وإن تماديت فيما أنت عليه وركبت رأسك فإن عاقبتك ستكون كعاقبة أخويك.

فأجابه خير الدين بقوله: سترىٰ غدًا -وإن غدًا ليس ببعيد- أنَّ جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وأن مراكبك ستغرق، وأن قُوَّادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة.

فلما جاء شارلكان وحاصر الجزائر خرج له خير الدين ومعه إيمان يغلفه حزم وعزم، يصطحب قواده وجنوده إلىٰ أرض المعركة وهو يتلو عليهم قول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧]، وتقدم إلىٰ الميدان ومعه رجاله، وقال لهم: إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق؛ لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن

سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام.

فصاحوا كلهم: الله أكبر، وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم.

ومن إنجازات القبطان الكبير خير الدين وإنجازاته لا تعد، لكن هذه بعضها:

تأمين سيطرة دولة الخلافة علىٰ شرق البحر المتوسط لمدة ٣٣ عامًا.

استطاع خير الدين أن ينقذ ما يفوق ٧٠,٠٠٠ من المهاجرين الأندلسيين وينقلهم إلىٰ الجزائر، فازدهرت المدينة بفضل مهارة الأندلسيين الذين نقلوا إليها فنونهم وصناعاتهم.

فتح تونس والجزائر وبلادًا كثيرة وضمها إلىٰ دولة الخلافة العثمانية العظيمة.

وجه ضرباته القوية المؤلمة إلىٰ أعداء الإسلام، فكسر شوكتهم، وهزم جيوشهم، وذاع صيته في أوروبا كلها، وأطلق

عليه الأوروبيون لقب: بربروس، وهو يعني: ذو اللحية الحمراء، وبلغ من شدة خوفهم وهلعهم منه أنهم كانوا يدعون في صلواتهم: بربروس بربروس، أنت صاحب كل شر، ما كان من ألم أو عمل مؤذٍ وجهنمي مدمر، إلا والسبب فيه هذا القرصان الذي لا نظير له في العالم، ومن أجل تشويه صورته قام الغرب بإنتاج سلسلة أفلام ضخمة حملت اسم: قراصنة الكاريبي، وصور فيها المجاهد خير الدين بصورة وحشية ودموية، ووصفه بالخسة والنذالة؛ محاولا أن ينال من ذلك القائد العظيم الذي أذل قادتهم، وهزم جيوشهم، حتىٰ إن كارلوس الخامس ملك إسبانيا كان يصرخ في قواده قائلًا: لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك، فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروس.

وقد ترك الأمير خير الدين بعد وفاته الكثير من الأموال والسفن والعبيد، وصىٰ ببعضها للدولة وبعضها لابنه حسن أغا، وترك من أمواله لعبيده ورجاله ما يؤمن عيشهم طوال حياتهم، فبقي علىٰ الخير والعطاء حيًّا وميتًا.

بقي خير الدين بربروس رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجاهدًا حتىٰ آخر لحظة في حياته، وكانت حملة ميناء طولون هي آخر حملة له، فلم

تطل به الحياة بعد عودته إلىٰ إسطنبول؛ حيث توفي في ٩٥٣هـ - ١٥٤٧م، عن عمر يناهز ٦٥ عامًا، تاركًا خلفه تاريخًا عظيمًا سطره هو وإخوته بدمائهم الزكية التي سالت من أجل الدفاع عن راية التوحيد وحماية بلاد المسلمين.

هذه سيرة قبطان ماهر، ملك البحار يومًا وخضع له أهلها، فمشىٰ فيها بالخير، وحكم فيها بالعدل، وقضىٰ فيها بالقسط، ورفع راية الإسلام عالية خفاقة تعانق الشمس في وسط السماء، وترك بصمات خالدة، ودمغ تاريخ الجهاد البحري باسمه، ولقد أغلقت بوفاته صفحة من صفحات القوة في تاريخ الأساطيل البحرية الإسلامية(١).

وأمة الإسلام ولود، لن تعدم أن يكون من أبنائها يومًا ما خير الدين، وعروج، وإلياس آخرين، يرفعون رايتها في السماء ويعلون شأنها في العالمين.

---

(١) اقرأ في سيرة بربروس: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة د. محمد دراج.

مترجم

الإسلام دين البشريَّة جميعًا، الشرق والغرب، الأبيض والأسود، الغنيِّ والفقير، الرجل والمرأة، فمحمد ﷺ هو رسول الله إلىٰ النَّاس جميعًا، فقد كان كلُّ نبيٍّ قبله يبعث إلىٰ قومه خاصة، أما رسول الله محمد ﷺفبعثه الله إلىٰ النَّاس عامَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨].

وروىٰ الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلىٰ الناس عامة**»(١).

فرسول الله ﷺ لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهوديًّا كان أو نصرانيًّا إلا وجب عليه الإيمان به واتباعه فإن مات

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

ولم يؤمن به كان من أصحاب النار.

ولهذا وجب علىٰ المسلمين تبليغ رسالة الإسلام إلىٰ البشريَّة كلِّها حتىٰ يستنقذوهم من النَّار ويرافقوهم إلىٰ الجنَّة، ويذوقوا نعيم الإيمان ولذَّته في الدنيا قبل الآخرة.

وقد قضىٰ الله تبارك وتعالىٰ علىٰ البشر باختلاف الألسن واللغات كما قضىٰ عليهم باختلاف الألوان والأجناس، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، وإذا كان الله بعث نبيه من العرب وأنزل القرآن بلسان عربيٍّ مبين، إلا أنَّه كان من أهل الأرض من يتحدث بغير لسان العرب من اللغات الشرقية والغربيَّة المحلية والعالميَّة، فهناك من اللغات: الإنجليزية، الألمانية، الايرلندية، الويلزية، الهولندية، الفرنسيَّة، الأردية، الإسبانية، الصينية، الفارسيَّة، الأمازيغية، الفولانية.. إلخ في قائمة طويلة.

ومن هنا وجب علىٰ أهل الإسلام تبليغ رسالته إلىٰ العالم بلغاته، وذلك عن طريق إعداد الدعاة الذين يتكلمون بلغاتهم ويتعرَّفون علىٰ عاداتهم وأخلاقهم ويدرسون تاريخهم

وطباعهم وينتقلون للعيش بينهم ودعوتهم بسلام إلىٰ دين الإسلام، وهؤلاء الدعاة سيترجمون لهم معاني القرآن والسنَّة، ويعلمونهم فرائض الإسلام وسننه، ويدلُّونهم علىٰ أخلاقه وآدابه، ويدرِّسونهم علومه ومعارفه.

ولا يتوقف عملُ الداعية علىٰ اللقاء المباشر بالجماهير هناك، فمن المهام الجليلة بهذا الشأن أيضًا نقل الكتب والعلوم الإسلاميَّة إلىٰ هذه اللغات، ويقوم علىٰ هذا مؤسسات وأفراد نذروا أنفسهم لها، فيترجمون الكتب المهمة المفيدة إلىٰ هذه اللغات، ليعينوا أهلها علىٰ الوصول إلىٰ الإسلام وعلومه بسهولة، وليساعدوا الدعاة فيهم علىٰ تبليغ دعوتهم ويشاركونهم في تسهيل مهمتهم.

وقد بدأ المسلمون الانتقال إلىٰ البلاد المختلفة دعاة إلىٰ الله تعالىٰ فتعلَّموا لغات أهلها ودعوهم إلىٰ الإسلام وافتتحوا قلوبهم للدين وذلك في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام العظيم، ثم بارك الله مسيرة الدعوة الإسلاميَّة بعد ذلك فأصبح من أبناء هؤلاء المسلمين الجدد من يحمل دعوة الله بلسان قومه ولغة بلاده.

ولقد سعدت يومًا وأنا أنظر في صورة تجمع بين أشهر خمسة دعاة للإسلام في العالم الغربي وهم من جنسيات مختلفة، وكانوا سببًا في دخول الآلاف في الغرب إلي الإسلام، وهؤلاء الخمسة **أحدهم** من أمريكا، **والثاني** من مصر، **والثالث** من الهند، **والرابع** من ماليزيا، **والخامس** من الصومال، اختلفت لغاتهم وجنسياتهم ولهجاتهم وألوانهم ولكن الجميع يدعو النَّاس إلىٰ الدين الوحيد الذي يرتقي بأهله فوق ظلمات الشرك والجهل والمعاصي، ويفتح أمامهم آفاق النور في التوحيد والعلم والعبادة.

وقد اشتهر مترجمون مسلمون وغربيُّون بنقل التراث الإسلامي إلىٰ اللغات العالميَّة والمحليَّة بهدف توصيل كلمة الله الحقِّ إلىٰ الدنيا كلها، ومن هؤلاء المترجمين من توفَّر علىٰ ترجمة معاني القرآن الكريم، مثل: **محمد مارمادوك بيكتال** وهو بريطاني مختص في الدِّين الإسلامي، ترجم معاني القرآن الكريم، وترجمته مكتوبة بأسلوب أدبي شعري رائع وبلغة اعتزاز بالقيم والحقائق الإسلاميَّة عالية جدًّا، أثنت علىٰ ترجمته المفكِّرة الإسلاميَّة العالميَّة **مريم جميلة**.

ومثل ترجمة: أَمَة الرحمن عمر، وهي أوَّل امرأة تترجم القرآن الكريم إلىٰ اللغة الإنجليزية، وقد اهتمت هذه الترجمة بتوضيح مفهوم الجهاد في الإسلام لغير المسلمين علىٰ وجه الخصوص، وأنَّ الإسلام هو دين السلام والحرية، لا يُكره أحداً علىٰ اعتقاد ما لا يقبله عقله وضميره.

ومثل ترجمة: عبد الله يوسف علي، وهذه الترجمة كان يستخدمها الشيخ أحمد ديدات في مناظراته، وينصح الجميع باستخدامها، وأهم ما يميز هذه الترجمة هو احتواؤها علىٰ تفسير سهل وبسيط لمعظم الآيات.

ومثل ترجمة: العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي ومحمد محسن خان، وهذه الترجمة مبنية علىٰ تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير.

وهناك غير هؤلاء عدد كبير من المترجمين توفَّروا علىٰ ترجمة معاني القرآن الكريم؛ حيث يزيد عدد هذه الترجمات علىٰ ٤٥ ترجمة كاملة، سوىٰ ما كان من الترجمات الجزئية.

ومن المترجمين من اجتهد في ترجمة كتب إسلاميَّة أخرىٰ.

لقد كانت دعوة النبي ﷺ للملوك والرؤساء في العام السادس من الهجرة بعد صلح الحديبية حيث راسل مِن ملوك الأرض مَن تصل إليه رسله وجنوده، كانت هذه المراسلات انطلاقة قويَّة تأسَّىٰ بها الدعاة علىٰ طريقه ﷺ، فبلغوا بدعوته الآفاق ونقلوا رسالة الإسلام إلىٰ ربوع العالم.

وبتحليل هذه الرسائل نجد أن الهدف منها كان واضحًا تمام الوضوح، وهو الدعوة الصريحة للإسلام، وترك أيِّ دين أيًّا كان، والدخول في نور الإسلام.

وهذه الخطابات تثبت أنَّ الرسول ﷺ كان قائدًا قويًّا، وكان مجاهدًا عزيزًا لا يخشىٰ في الله لومة لائم، وكان متجردًا تمامًا لله، طائعًا لكل أوامره؛ لأنه لو كان أحد ملوك الدنيا فلن يفكر أبدًا في مثل هذه المراسلات؛ لأنها سوف تقلب عليه الأوضاع تمامًا، وتثير عليه أهل الدنيا، ولكن لكونه رسول الله فإنه يعلم أن مهمته تقتضي البلاغ للعالمين مهما كان الثمن، وهو يعلم أن الله سينصر الدين حتمًا، ويُخرِج المسلمين من الأزمات مهما اشتدت، وقد أخرجهم قبل ذلك من أزمات مكة، وبدر، وأُحُد، والأحزاب، وبني قينقاع، وبني النضير،

وبني قريظة.. ولم تكن هذه الانتصارات لضعف أعداء الأمة قَطُّ، فكل أعداء الأمة كانوا من القوة بمكان، ولكن هذا الانتصار كان بقوة الله، وبإرادة الله رب العالمين، ونصره للذين آمنوا به.

وكل هذه المعاني كانت واضحة جدًّا في ذهن الرسول ﷺ؛ لذلك جاءت الرسائل قمة في الوضوح، لا تميُّع فيها ولا مداهنة.

وهكذا ينبغي أن تكون دعوة المسلم لغير المسلمين دعوة فيها الاعتزاز بالإيمان، والثقة بالله، واليقين في النصر، وعدم الهزيمة النفسيَّة والفكريَّة أمام علوِّ الكافرين بدنياهم وثرواتهم وقوتهم وغير ذلك.

ولكم نفع الله بالترجمات من أناس اهتدوا بها من ضلالة واستناروا بسببها فخرجوا من الظلمات إلىٰ النور، تصف الأستاذة مريم جميلة كتاب: **(ترجمة معاني القرآن)** للبريطاني المسلم محمد بيكتال وأنها تأثرت بما قرأته فيه، ولم يزل ذلك التأثير يصاحبها باستمرار؛ لما ظهر في كتابته من الاعتزاز بالإسلام والانفكاك عن أسر النظرة الغربية،

والبعد عن الضعف والتبرير.

إنَّ مجال خدمة الإسلام بدعوة غير المسلمين المتحدثين باللغات الأخرىٰ غير العربية مجال خصب تنبت ثماره بسرعة فائقة ومع هذا تكون ثمارًا طيِّبةً يانعة سليمة، وهو كذلك مجال واسع يستوعب جهودًا كثيرة جدًّا ونعم العمل الدعوة إلىٰ الله ونعم الأجر أن يسلم علىٰ يديك رجل ويشهد أن لا إله إلا الله، ذلك أفضل الأعمال وأجره وثوابه أعظم الأجر والثواب، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

مَن أحسن مِن الداعية إلىٰ الله؟

لا أحد أحسن منه علىٰ الإطلاق.

ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»(١).

وفي الحديث أيضًا أنه ﷺ قال: «**لأن يهدىٰ الله بك رجلاً**

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»(١).

فهيا فتيان الإسلام لنقوم بهذا الواجب المتعلق برقابنا، ليعود التوحيد إلىٰ عالميته وترتفع رايته علىٰ كل أرجاء الأرض كما كان في سالف الزمان ويرجع إلىٰ أهل الإسلام عزهم ومجدهم، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، فالدعوة إلىٰ التوحيد واجب هذه الأمة الخاتمة التي اختارها الله جل وعلا للقيادة قيادة البشرية بقوة وجدارة بما معها من الحق الذي قامت من أجله السموات والأرض وخلقت الجنة والنار وأنزلت الكتب وأرسلت الرسل.

هيا لننقذ أهل الأرض من الظلمات إلىٰ النور ونخرجهم من الشرك إلىٰ التوحيد فمن لهذه التبعة؟ من لهذا الواجب

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١٣٧٥)، وفي الصحيحين بلفظ: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»؛ رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).
و(**حمر النعم**) في لغة العرب تعني أجود الإبل وأحسنها، وهي أنفس أموال العرب وأرفعها عندهم فمثَّل بها، والمعنىٰ أن هداية واحدٍ من الكفار علىٰ يد الداعي هو خير عظيم وفضل كبير.

الثقيل؟ من لهذه الراية يحملها؟ من لهذه الغاية العظمىٰ؟ من لهذا الهدف الأسمىٰ؟

وإن أحببت أن تكون مترجمًا أو داعية للإسلام بين غير المسلمين، وأتمنىٰ علىٰ الله أن يفتح قلبك لذلك، فاحرص في طريق الوصول إلىٰ مهمتك علىٰ الخطوات التالية لتحصِّل النجاح فيها:

أن تدرس الإسلام دراسة متأصِّلة متأنية، في جامعاته العلميَّة الكبرىٰ وعلىٰ أيدي أهله المتخصصين في كل علم من علومه.

أن تلتحق بكليَّة أو قسم من أقسام اللغات والترجمة التي تُعدُّ الدعاة لممارسة الدعوة بلغات غير العربيَّة وتتفوَّق فيها وتستزيد من العلوم التي تؤهلك للنبوغ في مجالك.

أن تستزيد من القراءة والتحصيل المعرفي الذي يجعلك ملمًّا بتاريخ الإسلام وخاصة وقائع الصراع بينه وبين أعدائه، والشبهات التي يثيرها خصومه وجوابها.

أن تحيط بتاريخ اللغة التي تتحدث بها وفنونها وآدابها وواقعها حتىٰ تبرع فيها كأهلها، وأن تلم بعاداتهم وطبائعهم

وسلوكيَّاتهم ومواطن وأساليب التأثير فيهم.

أن تعيش عصرنا بأحداثه وظروفه ومتغيراته ومذاهبه وأوضاعه ولا تحتويك الصراعات التاريخية التي أكل عليها الزمان وشرب، ولم يعد لها تأثير قويٌّ بل اهتم بالمذاهب العصريَّة المنتشرة فبعضها يعمل لاقتلاع الإسلام من جذوره.

احرص علىٰ أن تنشغل بكبريات الأمور، وأن لا تبتلعك صغارها، مما ينشأ بين بعض الجماعات الدعويَّة والفكريَّة العاملة للإسلام، أو بين المذاهب الفقهيَّة فكلها إلىٰ جوار قضايانا الكبرىٰ لا تساوي شيئًا.

أن تؤهِّل نفسك تربويًّا وأدبيًّا علىٰ أفضل مستوىٰ سلوكيٍّ وأخلاقيٍّ علىٰ أيدي المربين وفي صحبة الربانيين، لتكتسب الإسلام واقعًا ومنهجًا في حياتك، وتوقن بحقائقه وتتعرَّف من قرب عليها، فتلك والله هي الغاية، وهو ما يؤثِّر في دعوتك حقيقة لا العلوم والمعارف والمهارات التي اكتسبتها وحدها.

أن تنوِّع في مشاركاتك الدعويَّة بين كتاب ورسالة ومقال ومناظرة وخطبة ودرس وحوار وعظة وجولة وحديث تلفاز وإذاعة وزيارات وغيرها، بما يتناسب مع كافة أنواع النَّاس

فكرة وثقافة، لا تتوقَّف عند نوع واحد من أمور الدعوة، تفلح وتنجح، وتثمر أطيب الثمر وأينعه، بمشيئة الله.

أن تدعو الله سرًّا وجهرًا أن يُوفِّقك في مهمتك وأن يفتح لك قلاع القلوب وحصون الأنفس وأن يرفع علىٰ يديك راية الإسلام فوق رؤوسها، وأن يكون همُّك الأوَّل والأخير مرضاته والتقرُّب إليه سبحانه.

أسأل الله تعالىٰ أن يأخذ بيديك وأن يعينك وأن يسدِّدك.

فقيـــه

يحتاج الإنسان إلىٰ دين الله بعدد أنفاسه، في صبحه ومسائه، في نومه ويقظته، في مشيه وقيامه وقعوده، في سلمه وحربه، وفي أحواله جميعًا، ذلك لأن دين الله تعالىٰ منهج عمليٌّ يعيش به الإنسان وليس نظريَّات مجرَّدة يعتقد فيها أو يؤمن بها.

ومن هنا أوجب الله علىٰ الإنسان معرفة القدر الضروريِّ من الدِّين، عقيدة وعبادة وأخلاقًا، وهي أركان الإيمان والفرائض والآداب العمليَّة، ثم ما يعرض له في حياته بحسب الحاجة ولا يستطيع الوصول إليه بنفسه يسأل عنه الفقهاء وأهل العلم: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وواجب علىٰ الأمة الإسلاميَّة إعداد هؤلاء الفقهاء الذين يلجأ إليهم الناس في مشكلاتهم وأسئلتهم للتعرُّف علىٰ حكم الله تعالىٰ فيها.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون رسول الله ﷺ فيفتيهم، وكان التابعون يسألون الصحابة رضي الله عنهم فيفتونهم،

ثم صار النَّاس في كلِّ زمان يسألون العلماء فيهم فيفتونهم، فالحاجة إلىٰ وجود العلماء والفقهاء ضروريَّة وتوفيرهم للقيام بها واجب شرعيٌّ علىٰ الحكام وأهل المسئولية خاصة وعلىٰ المؤمنين عامَّة.

لم تخلُ أمة الإسلام بحمد الله في زمن من أزمنتها عن فقهاء؛ ففي عهد الصحابة نبغ كثير من الفقهاء كالخلفاء الأربعة، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأمهات المؤمنين: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة؛ وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأسماء بنت أبي بكر، وأم الفضل بنت الحارث، وأم هانئ بنت أبي طالب، وكثير غيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

وعن هؤلاء الصحابة أخذ فقهاء التابعين مثل: سعيد بن المسيب، وعروة ابن الزبير، والقاسم بن محمد، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، خارجة بن زيد، وسليمان بن يسار.

ويسمىٰ هؤلاء فقهاء المدينة السبعة، وعنهم انتقل الفقه

إلىٰ من بعدهم، فتأسَّست المذاهب الإسلاميَّة الكبرىٰ التي يعرفها النَّاس اليوم: **مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، ومذهب الإمام مالك بن أنس، ومذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل**، رحمهم الله تعالىٰ وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ولم يزل ينشأ في العالم الإسلامي في كل عصر فقهاء يتعلَّمون دين الله ويعلمونه الناس ويجيبون علىٰ أسئلتهم فيه، وأعلىٰ هؤلاء مرتبة في الدولة الإسلاميَّة في كل بلد من بلادها يسمَّىٰ المفتي.

ومن المفتين العظام الذين فخرَت بهم الأمة الإسلاميَّة جميعها:

الإمام **محمد المهدي العباسي**، وهو أول من جمع بين منصبي المفتي وشيخ الأزهر، في قصَّة عجيبة غريبة، كان محمد الذي يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا يجلس لطلب العلم في حلقة أستاذه الشيخ إبراهيم السقا، وإذ بخطاب يأتي من قبل الحاكم الجديد لمصر إبراهيم باشا بن محمد علي يستدعىٰ فيه الطالب محمد المهدي، ذهب محمد المهدي

لمقابلة الوالي وهو في عجب من أمر استدعائه، وهناك زاد عجبه وهو يرىٰ الوالي يصدر أمرًا بأن يتولىٰ منصب الإفتاء، ما القصَّة؟ ولماذا محمد المهدي الذي ما يزال طالبًا يتلقىٰ العلم في حلقات الشيوخ وهناك كثير من أساتذته وشيوخه الكرام الكبار؟

تقول القصة: إن إبراهيم باشا كان في زيارة إلىٰ عاصمة الخلافة العثمانية ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته علىٰ مصر، وتقابل هناك مع شيخ الإسلام عارف حكمت، فأوصاه خيرًا بذرِّيَّة الشيخ محمد المهدي الكبير، وأن يولي منهم من يصلح لمنصب أبيه، فاستجاب إبراهيم باشا لوصية شيخ الإسلام وحرص علىٰ استرضائه، فعزل المفتي القديم، وأقام محمد المهدي في منصبه، وهو لا يزال غض الإهاب لم يتجاوز مرحلة طلب العلم.

إذًا هي السياسة وأهواؤها، تحيف عن الحق، وتعدل عن العقل، وتجانب الحكمة، وتقدم علىٰ الغريب من الأعمال، وهذا ما كان!

وبقيت مشكلة صغر محمد المهدي عن سنِّ الإفتاء

واستكمال أدواته التي لا يصلح بدونها للنهوض بأعباء الفتوىٰ، رغم توفُّر ذكائه، وحدَّته، واجتهاده في تحصيل العلم، وحرصه علىٰ بلوغ الغاية فيه.

وحلًا لهذا المعضلة عُقد للمفتي الجديد مجلسٌ بالقلعة حضره بعض العلماء، واتفقوا علىٰ تعيين أمين للفتوىٰ يقوم بشئونها حتىٰ يتأهَّل صاحبها، ويباشرها بنفسه.

وأمَّا محمد المهدي فقد عرف لمنصبه حقَّه، وتعامل مع وضعه الجديد بالحكمة، فقد أقبل المفتي الشاب علىٰ العلم ينهل منه ويَروي، وما هي إلا سنوات قليلة حتىٰ نبغ نبوغًا بارزًا يُظن معه أنه تولىٰ الإفتاء عن جدارة واستحقاق، وأجلسه علمُه بحقٍّ وجدارة للتدريس في الأزهر بين فحول العلماء، ويجلس بين يديه الطلاب يتلقَّون العلم الصافي عن عالمٍ واسع الاطلاع، فقيه، دقيق الفهم، لا يكاد أحد يصدِّق قصَّته من فيض علمه وشدة تمكنه وقوَّة براعته.

وكان محمد المهدي يتمتع بورع لافت، وزهد فطري، وصلاح ظاهر، فاحتفىٰ المنصب الجديد بأخلاق شيخه هذه وقبس منه وعامل الجميع من خلال تلك الأخلاق، لا سيما

وقد ضمَّ إليه منصب شيخ الأزهر، فكان أصغر من تولىٰ المشيخة في تاريخها المديد، وبذلك صار المهديُّ مسئولًا مسئوليَّة كاملة عن الدين أمام الله والنَّاس، فكان فيصدع بالحق دون خوف أو وجل، لا يخشىٰ في الحق لومة لائم، ويسجِّل لنا التاريخ كثيرًا من هذه المواقف:

فحين أراد عباس الأول والي مصر أن يستولىٰ علىٰ ثروة أسرة محمد علي بحجة أنه جاء إلىٰ مصر لا يملك دينارًا أو درهمًا، وأنَّ ما في أيدي أسرته إنما هو مال الأمة يجب ردَّه إليها، وقف له المفتي وامتنع عن إصدار فتوىٰ تبيح للوالي الإقدام علىٰ مثل هذا العمل، فحاول إكراهه وتهديده، فازداد امتناع الشيخ ولم يأبه لتهديدات الوالي.

وحين أراد الخديوي إسماعيل أن يلحق الأوقاف الأهلية بالأوقاف العمومية ليسهل له الاستيلاء عليها، حيث كان ناظرًا عليها، ورغب في أن يعوِّض أربابها بما يكفل لهم معاشهم، وسأل الفتيا في ذلك فأفتاه بعض العلماء بجواز ذلك، فكان ذلك مسوِّغًا له ليسعىٰ في طلب موافقة الإمام المهدي الذي أعلن رفضه لما يطلبه الخديوي فور سماعه، ولم يخضع لتهديداته قائلًا: إنه ليسهل عليه تجرده مما يملك وما ورث

عن آبائه علىٰ أن يُعلن أنه حكم بغير ما أنزل الله، وأنه حابىٰ بدينه، أو راعه التهديد، ولم يعد أمام الخديوي سوىٰ أن يعقد جلسة للعلماء؛ لبحث شرعيَّة ما ينوي الإقدام عليه، وانتهىٰ الرأي بالحاضرين من العلماء إلىٰ صواب ما ذهب إليه الإمام الأكبر، فارتفعت مكانته وزادت هيبته بين الحكام.

كان الإمام محمد المهدي العباسي: يصدح دائمًا بأنَّ إزالة كل منكر في البلاد وتجنب الحكم بغير ما أنزل الله لهو أمر واجب، والسعي إلىٰ تحقيقه فرض علىٰ الجميع، ولقد كان يجهر بذلك في خطبه ومقالاته إبَّان زحف قوات الإنجليز علىٰ مصر واحتلالها فجاء كلامه زعزعة للثقة بحكم المحتل.

وفي الأزهر رأت المشيخة من المهدي العباسي الحزم والنشاط في تنظيم شئون الأزهر الإدارية والمالية، والتعليميَّة، فقد استصدر قرارًا من الخديوي بوضع قانون للتدريس بالأزهر، فاستجاب له، وكان هذا القانون أول خطوة في إصلاح نظم الأزهر وتطوير الدراسة به، واختيار القائمين علىٰ التدريس به وفق شروط موضوعية.

وتشدَّد في إنفاق أموال الأوقاف علىٰ مستحقيها وفق الشروط التي وضعها الواقفون.

ولما كان الإمام محمد المهدي العباسي يعقد جلسات في بيته يؤمُّها بعض الكبراء والعلماء، يتكلمون في السياسة ويظهرون سخطهم علىٰ الاحتلال البريطاني وعلىٰ مما لأة الحكومة المصرية له.

وكان هو يعارض أحكام القضاء التي تمالئ الخديوي والحكومة، ويراعي في اختيار القضاة الشرعيين العلم والأمانة والدقة، ويحميهم من تدخل الحكام، وقد أحدث ذلك كله فجوة بينه وبين الخديوي والحكومة، وكثرت شكاوىٰ الوزراء للخديوي من أعماله.

ولم يمنعه الخوف من فقدان المنصب حين لامه الخديوي توفيق في إحدىٰ المناسبات وخاطبه بغلظة أن لا يتدخل فيما لا يعنيه، فأجابه الشيخ في عزة بطلب إعفائه من جميع مناصبه، الأمر الذي لم يكن الخديوي يتوقعه وأصرَّ عليه الإمام.

خرج المهدي العباسيُّ بعد أربعين عامًا قضاها في منصب الإفتاء ونحوًا من عشرين سنة في مشيخة الأزهر يجلس في بيته راضيًا عن ما قدَّم، ولم يكتف بما بذل من العطاء بل كان يفتي

من يأتيه ومن يراسله فقد ظل إلىٰ يوم وفاته محل تقدير وإجلال ومصدرًا للفتوىٰ بين الناس لما عرف عنه من تقوىٰ وصلاح[١]، رحم الله الإمام محمد المهدي العباسي ورفع درجاته في عليين، فبمثل هؤلاء العلماء والله تحيا الأمم وتبنىٰ الحضارات ويعزُّ الدين ويرتفع شأن البلاد وأهلها.

فإن سمت نفسك لمثل هذا المنصب الجليل: الفقه في الدين وإفتاء النَّاس بالحق والسعي بالعدل فيما بينهم، فاحرص علىٰ أن تكون فقيهًا مبدعًا، وأحكم العلوم التي يحتاجها الفقيه، وتلقَّ العلوم التي تؤهلك للإبداع فيه، ووطِّن نفسك علىٰ قول الحق في كل موطن؛ تنل الخير من الله والبركة في الحياة والرفعة في الآخرة والعزة في حياتك والذكر الحسن بعد مماتك.

(١) انظر في سيرة الإمام: أصحاب المشيختين.. سيرة حياة خمسة من علماء الأزهر جمعوا بين مشيخة الأزهر والإفتاء، د. محمد الجوادي، مكتبة الشروق الدولية، والنهضة الإسلاميَّة في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي.

أوَّل المؤمنين

وفي النهاية يبقىٰ السؤال: ما هو العنصر المشترك بين هؤلاء العظماء جميعًا؟

والجواب: إنَّه الإيمان، الذي حملهم علىٰ العيش برسالة والحياة بهدف، وشجَّعهم علىٰ الصبر علىٰ مشاقِّ الوصول إليه، وجعلهم يخلصون في أعمالهم ويحققون الإتقان في أدائهم.

إنَّ الإيمان هو أقوىٰ الأدوات المعينة للإنسان في حياته لتحقيق حلمه وتهديف حياته والوصول إلىٰ آماله في الدنيا والآخرة.

وإذا كان من اللائق بهمة المسلم أن يطلب معالي الأمور وأشرافها فإنِّي لا أدعوك للإيمان فقط، بل أدعوك لتكون: أول المؤمنين.

كلُّ شيء يبدأ ضعيفًا ثم يقوىٰ ويشتدُّ، ومن ذلك الإيمان، يكون في البداية بصيصًا أو ضوءً باهتًا من النُّور ثم لا يلبث أن يغمر القلب ويملأه، ثم يشعُّ من أنواره علىٰ من حوله وربما امتد تأثيره ليشمل الدنيا بأسرها حيث عمرها

بالخير، وما أحوج الحياة إلىٰ الإيمان، في إقامة العدل بين الرعية والحكام وإقامة الإنصاف بين الرعيَّة وبعضهم وغرس الخير في قلوب وسلوك الجميع، نعم ما أحوج البشرية في الدنيا جميعًا إلىٰ الإيمان.

وقد عرفت الدنيا فيما سلف مؤمنين أقوياء الإيمان كانوا قبل أن يأتيهم الإيمان لا شيء، أو كانوا شيئًا قليلًا إذا مرَّ عصرهم لا يذكرون، فصاروا بعد إيمانهم منارات الدنيا وهداة العالمين، وجرىٰ ذكرهم بالخير علىٰ كل لسان، وها هي الأعوام تمر والعقود من ورائها تجري وتنقضي الأحقاب والقرون وذكرهم باق وسيبقىٰ ما دامت الدنيا يُثنىٰ عليهم بالصدق والخير في العالمين.

من هؤلاء الجبال الرواسي أنبياء ورسل، ومنهم خلفاء وملوك، ومنهم أمراء وسلاطين، ومنهم قادة وشجعان، ومنهم علماء ومرشدون، ومنهم زهَّاد وعابدون، ومنهم مسلمون عاديُّون.

والتعرُّف علىٰ هؤلاء العظماء واتخاذهم قدوة وتلمُّس أسباب عظمتهم وتطبيقها في حياتنا هو أول درجة في سُلَّم

المجد وبناء مستقبل عظيم، فتعالوا بنا نتعرَّف علىٰ رجل منهم ذي طراز فريد، جمع من أسباب العظمة شيئًا كثيرًا واستطاع أن يكتب اسمه في جبين الدنيا بأحرف من نور، ذلك الرجل هو عبد الله، كان تاجرًا من كبار التجار، عاقلًا، صادقًا، سمحًا، حليمًا، محبوبًا، ولما بعث الرسول ﷺ بالإسلام كان عبد الله بن عثمان أول من آمن من الرجال، وسماه النبي ﷺ أبو بكر الصديق حين بكر إلىٰ الإسلام وصدَّق رسوله ﷺ فيما أخبر.

لقد كان شأن أبي بكر رضي الله عنه في الإيمان عجيبًا غاية العجب، فقد سارع إلىٰ الدخول في الإسلام دون تلجلج واستجاب لدعوة النبي ﷺ علىٰ الفور، وهذا من تمام عقله وكمال شخصيَّته، فقراره هذا يدلُّ علىٰ أنه كان يفكِّر في حال المشركين قبل الإسلام فلا يرضاه، يعبدون حجارة ويتقربون إليها، لقد كان يوقن أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنهم شيئًا، ولهذا أُثر أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسجد للأصنام قبل إسلامه قط.

وأيضًا نظر أبو بكر في حال النبي ﷺ الذي يدعوه للإسلام وكان يعرفه قبل النبوة وتعرفه مكةُ جميعًا بالصدق والأمانة

والفطانة وكريم الأخلاق والبعد عن السفاهات، فلما دعاه النبي ﷺ إلىٰ الإسلام سارع إلىٰ الاستجابة لذلك.

وأيضًا كان أبو بكر صاحب عقل وعلم وحلم فلما سمع من النبي ﷺ ما يدعو إليه وجده لا يعارض العقل ولا ينفيه العلم ولا يُلاقَىٰ بغير القبول، لأنه يدعو إلىٰ كلِّ حسن وخير وبرٍّ، فكلُّ من كمُل عقله استجاب له ما لم تحجب العصبية العمياء عينيه وما كان لأبي بكر أن تعميه العصبية.

آمن أبو بكر الصديق فكان أول الرجال إسلامًا، وأعظم الصحابة شانًا وإيمانًا، وكان لأبي بكرٍ مع الإيمان قصة ذاتُ فصولٍ عظيمةٍ، فإن كان شأنه مع الدعوة إلىٰ الإسلام المسارعة إلىٰ الدخول فيه فلقد ظلَّ هذا دأبه مع كلِّ أمرٍ في الإسلام، يبكِّر إليه أوَّل المبكِّرين، ويسبق فيه جميع المتسابقين.

ففي رحلة الإسراء والمعراج التي جعلها الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم إلىٰ السماوات العلا إلىٰ ما شاء الله، وتمَّ ذلك كلُّه في جزء من الليل، وكذَّب به المشركون، ورأوها فرصة لتكذيب النبي ﷺ بين أصحابه فذهبوا إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: يا أبا بكر!

هل لك في صاحبك؟! يخبر أنه أتىٰ في ليلته هذه بيت المقدس -ونحن نقطعها في مدة شهر- ورجع في ليلته؟!

فقال أبو بكر رضي الله عنه : أو قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال أبو بكر: إن كان قاله فقد صدق، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا؛ نصدقه في خبر السماء.

لقد أجابهم أبو بكر بالإيمان، أنا أصدِّق رسول الله ﷺ في الوحي الذي يأتيه من الله فكيف لا أصدِّقه في أمر أهون منه، وإتيانه بيت المقدس والعودة منه في ليلة هو أهون فعلًا من الوحي، لأنه لو صحَّ أنه رسول الله فالله معه والله علىٰ كلِّ شيء قدير، وهكذا حرَّك أبا بكر إيمانُه بالإسلام لتصديق الرسول ﷺ في كلِّ أمرٍ ووقت.

وحين آمن أبو بكر بالإسلام وعرفه أحبَّ أن يدخله النَّاس جميعًا، فقد وجد فيه السعادة والخير الذي كان يبحث عنه، ولهذا سارع إلىٰ أصحابه والمقربين منه ممن يلمس فيهم العقل والفطنة يدعوهم إلىٰ الإسلام فأسلم بدعوته عدد كبير من المسلمين الأوائل منهم ستَّة من العشرة المبشَّرين بالجنة،

لقد أسلم علىٰ يديه:

طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن عفان، كما أسلم علىٰ يديه فحول كبار آخرون خدموا الإسلام خدمة عظيمة ونالوا به شرفًا كبيرًا، لا شك أنهم جميعًا في ميزان حسنات الصديق الذي حرَّكه إيمانه لدعوتهم لهذا الدين.

وما كان أبو بكر رضي الله عنه يدَّخر جهدًا أو مالًا في سبيل الدعوة إلىٰ الإسلام حتىٰ أنفق ماله كلَّه في هذا الطريق، كان يشتري من يسلم من العبيد حتىٰ لا يتعرضوا للقتل والإيذاء، ويعتقهم لوجه الله..

وكان من هؤلاء الذين اشتراهم بلال بن رباح مؤذن الرسول، حتىٰ إن عمر رضي الله عنه كان يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني بلالًا.

ولم يستمع أبو بكر إلىٰ كلام من حوله في الحفاظ علىٰ ماله أو حتىٰ يوظِّفه في شراء رجال أقوياء يحمونه، لقد كان يرىٰ في عتق هؤلاء العبيد الضعفاء خير الأعمال التي يتقرَّب

بها إلىٰ الله، ومعنىٰ ذلك أنَّ الإيمان كان هو سائق أبي بكر إلىٰ ذلك العمل لا غيره من الدوافع والأسباب.

هذا بعض إنفاقه في مكة، وفي إنفاقه في المدينة النبوية أخبارٌ طريفة وأحاديث عجيبة حين هاجر مع النبي ﷺ وصحبه إلىٰ المدينة وكان وزيره ومستشاره الأوَّل فيها، فقد أنفق ماله كلَّه في سبيل الله، حتىٰ إن النبي لما دعا لتجهيز جيش تبوك الذي خرج للدفاع عن أطراف الجزيرة العربيَّة ضد اعتداءات الرُّوم جاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وقال: اليوم أسبق أبا بكر إن كنت سابقه يومًا، فوضع المال في حجر النبي ﷺ فسأله ما أبقيت لأهلك؟

قال عمر: أبقيت لهم مثله، يقصد أنه تصدق بنصف ماله وأبقىٰ النصف الآخر لعياله، وما هو إلا يسير من الوقت حتىٰ جاء أبو بكر ومعه أموال كثيرة صبَّها في حجر النبي ﷺ فسأله ما أبقيت لأهلك؟

قال: أبقيت لهم الله ورسوله[1]، لقد جاء بماله كلِّه.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٨٠)، والترمذي (٣٦٧٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني.

لقد كان أبو بكر أوَّل المؤمنين إيمانًا، وتصديقًا، ودعوة، ونصرة، وهجرة، ونفقة، وكذا بكلِّ ما تعنيه الكلمة وما تحتمله من معان، فإنَّ الإيمان ليس القول فقط وإنما هو القول والعمل، ولقد صدق أبو بكر إيمانه فصدقه إيمانُه فدلَّه علىٰ كلِّ خير، بل بادر به إيمانه إلىٰ مقدمة أهله فكان أسبقهم جميعًا.

ظلَّ أبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ كما كان في حياته، يرعىٰ الدين ويحرس الإيمان، ويأرزُ إليه كلُّ قلبٍ سليم وعقل صحيح، لا سيما وقد صار خليفة المسلمين والمسئول الأول عنهم.

وحين ارتد بعض ضعاف الإيمان ومن كانوا قد دخلوا في الإسلام نفاقًا بسبب وفاة الرسول ﷺ ثبت أبو بكر علىٰ إيمانه وثبَّت من حوله، وجرَّد قواته لحماية الإسلام وأهله من عدوان المعتدين وسخرية الساخرين وأطماع الطامعين، فسَلِم الإسلامُ وأَمِنَ المسلمون في خلافته كما أمنوا في عهد رسول الله ﷺ.

وبعد أن استتبَّ له الأمن في داخل دولة الإسلام وجَّه جيوشه نحو عروش الطاغين تسقطها وإلىٰ قلوب الشعوب يرفع عنهم الأعباء التي حملوها بغير حقٍّ حتىٰ يروا ما حولهم، وحين رأت هذه الشعوب عدل الإسلام وبرَّه وعظمته سارعوا للدخول فيه راغبين محبِّين.

لم يتزعزع إيمان أبي بكر لحظة، بل كان كلَّ يوم يزيد حتىٰ لقي ربَّه تبارك وتعالىٰ وهو أوَّل المؤمنين، أوَّل المؤمنين مع الوحي ومع الغيب كلِّه، أوَّل المؤمنين مع الرسول ومع عالم الشهادة بأسره، أوَّل المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، برفقة النبي ﷺ وبعده، أوَّل المؤمنين في ساعات الضراء والسرَّاء، أوَّل المؤمنين إن في وجه كفار مكة أو في وجه كفار الدنيا بأجمعها.

وإن حال المسلمين اليوم لتطلب رجالًا علىٰ طريق الصدِّيق ليصلحوا من حال الدنيا، يجمعون قوة الإيمان في قلوبهم فترشح علىٰ جوارحهم نورًا وحكمة، فمن ذا يُشهد الله أنه علىٰ طريق الصدِّيق أوَّل المؤمنين؟

والطريق إلىٰ الإيمان القويِّ سهل ميسور، لكنَّه يحتاج

إلىٰ فكر وبصر واهتمام، فبالاقتراب من الأجواء الإيمانية يقوىٰ الإيمان، كحضور مجالس الذكر، والصلاة في جماعة، ومجالسة الصالحين.

والحرص علىٰ القدوة والرفقة الصالحة المؤمنة يُقَوِّي الإيمان.

والانشغال بأمور الآخرة والتفكر فيها والعمل للفوز بالجنة والنجاة من النار يُقَوِّي الإيمان.

والحرص علىٰ معالي الأمور والبعد عن السفاهات والتقليل من المباحات من أكل، وشرب، ونوم، وكلام، وخلطة، وكل ما يثقل الإنسان ويشغله عن طاعة الله؛ يُقوِّي الإيمان.

والإقبال علىٰ قراءة القرآن وفهم معانيه واستجلائها، وتدبرها، وفهم الإنسان ما يراد منه، وما نزل لأجله، وتلمُّس دائه ودوائه خلال ذلك؛ يُقوِّي الإيمان.

وتعويد النفس علىٰ المبادرة إلىٰ الطاعة حتىٰ تعتادها، والتدرُّج معها في تحمُّلها حتىٰ تشعر بحلاوتها وتصبر

علىٰ أدائها يُقوِّي الإيمان.

والدعاء بالثبات علىٰ الطاعة وعدم الزيغ عنها وأن يجدد الله الإيمان في قلبك؛ يُقوِّي الإيمان(١).

فاحرص علىٰ هذا كلِّه يقوَ إيمانك بل تكن أوَّل المؤمنين وأول المبكرين إلىٰ طاعة الله وأوَّل المنتهين عن نواهيه وزواجره، وبهذا يرتفع شأنك ويعلو قدرك في الدنيا والآخرة.

(١) انظر في سيرة الصديق: سيرة أبي بكر الصديق، د. علىٰ الصلابي، وأمجاد الإسلام في سير أعلامه العظام، للمؤلِّف.

العالم بانتظارك

أيُّها الفتىٰ الرائع!

أيتها الفتاة الرائعة!

في كلِّ يوم جمعة، وبعد الصلاة، كان إمام المسجد وابنه البالغ من العمر إحدىٰ عشرة سنة يخرج في بلدتهم في إحدىٰ ضواحي أمستردام ويوزع علىٰ الناس كتيب صغير بعنوان **(الطريق إلىٰ الجنة)** وغيرها من المطبوعات الإسلامية.

وفىٰ أحد الأيام بعد ظهر الجمعة، جاء وقت نزولهما إلىٰ الشوارع لتوزيع الكتيبات، وكان الجو باردًا جدًّا في الخارج، فضلًا عن هطول الأمطار.

ارتدىٰ الصبي كثيرًا من الملابس حتىٰ لا يشعر بالبرد، وقال: حسنًا، هيَّا يا أبي، أنا مستعد!

سأله والده: مستعد لماذا؟ قال الابن: يا أبي، لقد حان الوقت لكىٰ نخرج فنوزع هذه الكتيبات.

أجابه أبوه: الطقس شديد البرودة في الخارج وإنها تمطر بغزارة!

أدهش الصبيُ أباه بالإجابة حين قال: ولكن يا أبي لا يزال هناك ناس يذهبون إلىٰ النار علىٰ الرغم من أنها تمطر!

أجاب الأب: ولكنني لن أخرج في هذا الطقس!

قال الصبي: هل يمكن يا أبي، أن أذهب أنا؟ من فضلك!

تردد والده للحظة، ثم قال: نعم؛ يمكنك الذهاب، وأعطاه بعض الكتيبات.

شكر الصبيُّ والده، وغادر المنزل إلىٰ وجهته.

مشىٰ في شوارع المدينة في هذا الطقس البارد والممطر؛ كي يوزع الكتيبات علىٰ من يقابله من الناس، وظل يتردد مِن باب إلىٰ باب، بعد ساعتين من المشي تحت المطر، تبقىٰ معه آخر كتيب، وظل يبحث عن أحد المارة في الشارع لكىٰ يعطيه له، لكن الشوارع كانت مهجورة تمامًا، استدار إلىٰ الرصيف المقابل لكىٰ يذهب إلىٰ أول منزل يقابله فيطرقه حتىٰ يعطيهم الكتيب ويذهب.

وصل عند الباب، ودق الجرس، ولكن لا أحد يجيب.

دق الجرس مرات، ولم يجبه أحد، وأراد أن يرحل، لكن شيئًا ما منعه.

مرة أخرىٰ، التفت إلىٰ الباب، ودق الجرس، وأخذ يطرق علىٰ الباب بقبضته بقوة، وهو لا يعلم ما الذىٰ جعله ينتظر كل هذا الوقت، ويطرق الباب بهذه الطريقة، وفي هذه المرة فتح الباب ببطء.

كانت تقف عند الباب امرأة كبيرة طاعنة في السن، يبدو عليها علامات الحزن الشديد، فقالت له: ماذا أستطيع أن أفعل لك يا بُني؟!

قال لها الصبىٰ الصغير، وعيناه متألقتان وعلىٰ وجهه ابتسامة أضاءت لها العالم:

سيدتي!

أنا آسف إذا كنت أزعجتك، ولكن فقط أريد أن أقول لك:

إن الله يحبك حقيقة، ويعتني بك، وجئت لكي أعطيك آخر كتيب معي، والذىٰ سوف يخبرك كل شيء عن الله، والغرض الحقيقي من الخلق، وكيفية تحقيق رضوانه.

وأعطاها الكتيب، وأراد الانصراف، فقالت له: شكرًا لك يا بني!

في الأسبوع القادم بعد صلاة جمعة، وكان الإمام يعطي محاضرة، وعندما انتهىٰ منها وسأل: هل لأي شخص سؤال أو يريد أن يقول شيئًا؟

ببطء، وفي الصفوف الخلفية، وبين السيدات، كانت سيدة عجوز يُسمع صوتها تقول: أنا، ثم استطردت تقول: لا أحد في هذا الجمع يعرفني، ولم آت إلىٰ هنا من قبل، وقبل الجمعة الماضية لم أكن مسلمة ولم أفكر أن أكون كذلك!

توفي زوجي منذ أشهر قليلة، وتركني وحيدة تمامًا في هذا العالم، وفي يوم الجمعة الماضي كان الجوُّ باردًا جدًّا، وكانت تمطر، وقد قررت أن أنتحر؛ لأنني لم يبق لدي أي أمل في الحياة.

لذا أحضرت حبلًا وكرسيًّا وصعدت إلىٰ الغرفة العلوية في بيتي، ثم قمت بتثبيت الحبل جيدًا في إحدىٰ عوارض السقف الخشبية، ووقفت فوق الكرسي وثبَّتُّ طرف الحبل الآخر حول عنقي، وقد كنت وحيدة ويملأني الحزن،

وكنت علىٰ وشك أن أقفز.

فجأة سمعت صوت رنين جرس الباب في الطابق السفلي، فقلت: سوف أنتظر لحظات ولن أجيب، وأيًّا كان مَن يطرق الباب فسوف يذهب بعد قليل.

انتظرت ثم انتظرت حتىٰ ينصرف من بالباب، ولكن كان صوت الطرق علىٰ الباب ورنين الجرس يرتفع ويزداد.

قلت لنفسي مرة أخرىٰ: من علىٰ وجه الأرض يمكن أن يكون هذا؟ لا أحد علىٰ الإطلاق يدق جرس بابي ولا يأتي أحد ليراني!

رفعت الحبل من حول رقبتي، وقلت: أذهب لأنظر من بالباب ويدق الجرس ويطرق الباب بصوت عال وبكل هذا الإصرار!

عندما فتحت الباب لم أصدق عيني، فقد كان هناك صبي صغير، عيناه تتألقان، وعلىٰ وجهه ابتسامة ملائكية لم أر مثلها من قبل، حقيقة لا يمكنني أن أصفها لكم.

والكلمات التي جاءت من فمه مسَّت قلبي الذي كان ميتًا ثم قفز إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ، قال لي هذا الصبي بصوت

ملائكي: سيدتي، لقد أتيت الآن، لكي أقول لك: إن الله يحبك حقيقة ويعتني بك!

ثم أعطاني هذا الكتيب الذىٰ أحمله: (**الطريق إلىٰ الجنة**).

وكما أتاني هذا الملاك الصغير فجأة اختفىٰ مرة أخرىٰ، وذهب من خلال البرد والمطر، وأنا أغلقت بابي وبتأنٍّ شديد قمت بقراءة كلِّ كلمة في هذا الكتاب.

ثم ذهبت إلىٰ الأعلىٰ وقمت بإزالة الحبل والكرسي؛ لأنني لن أحتاج إلىٰ أيٍّ منهما بعد الآن!

ترون؟ أنا الآن سعيدة جدًّا؛ لأنني تعرفت إلىٰ الإله الواحد الحقيقي، ولأن عنوان هذا المركز الإسلامي مطبوع علىٰ ظهر الكتيب جئت إلىٰ هنا بنفسي؛ لأقول لكم: الحمد لله، وأشكركم علىٰ هذا الملاك الصغير الذي جاءني في الوقت المناسب تمامًا، ومن خلال ذلك تم إنقاذ روحي من الخلود في الجحيم.

لم تكن هناك عين لا تدمع في المسجد، وتعالت صيحات التكبير؛ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

نزل الإمام الأب عن المنبر، وذهب إلىٰ الصفِّ الأمامي حيث كان يجلس ابنه، هذا الملاك الصغير، واحتضن ابنه بين ذراعيه وأجهش في البكاء أمام الناس دون تحفظ، ربما لم يكن بين هذا الجمع أبٌ فخورٌ بابنه مثل هذا الأب!

أيها الفتىٰ الرائع، أيتها الفتاة الرائعة، كم من الفرص تنتظركم الآن، وفي المستقبل؛ ليغير الله بها حال كثير من الناس، فاجتهدوا في الوصول إلىٰ مستقبلكم وتحقيق أحلامكم لتسهموا في رفع راية الإسلام وبناء أمجاده، تحياتي ودعواتي لكم.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥
باحث عن الحقيقة ١١
سفيـــر ٣٢
فقيهـــة ٥١
رائد فضاء ٦٠
طبيـــب ٦٧
داعيـــة ٨٠
مفكِّـــر ٩٣
مفكِّـــرة ١١٢
مُصْلِـــح ١١٩
عـــالم ١٣١
مـــؤرِّخ ١٤٣
مُفسِّـــر ١٥٣

وزيـــر ١٧٥
قـــاضٍ ١٨٥
صـــحفيٌّ ١٩٥
مُحَـــدِّث ٢٠٣
قُبـــطان ٢١٢
متـــرجِم ٢٢٦
فقيـــه ٢٣٨
أوَّل المؤمنين ٢٤٧
العالم بانتظارك ٢٥٨
فهرس الموضوعات ٢٦٥